

محمد على والحضارة القديمة

د. مجدى عبد الحافظ

يكتنف موضوع محمد على والحضارة المصرية القديمة كثير من الغموض، وكلما عثرنا على مزيد من المراجع أو الوثائق الخاصة بهذا الموضوع كلما زادت حيرتنا، وتضاعفت إشكاليات الموضوع. إذ أن النظرة على هذه المصادر تؤكد بما لا يدع مجالا لآى شك على تناقض نلحظه منذ الوهلة الأولى ، يظل يصاحبنا طيلة الدراسة، وهو ما يتمثل في الفوضى التي تم التعامل بهما مع الآثار المصرية القديمة: فوضى التصاريح والقوانين والأقوال والأفعال.

وكلها وإن كانت صادرة عن نفس المصدر ، ألا وهو والي مصر محمد علي، إلا إننا نلحظ غياب خيط ناظم يؤطرها لتصب في النهاية في صالح سياسة أثرية واضحة. بل علي العكس كان التناقض هو السمة الغالبة التي ميزت هذه المصادر.

إن الحيرة التي نتملكنا أحيانا أمام بعض الموضوعات وقراءة النصوص المختلفة عندما نكتشف التباين ، بل التناقض الصريح فيما نعاينه ينطبق بامتياز علي موضوعنا هذا ، خاصة عندما نستطيع التأكيد وبيقين ثابت أن آثار الحضارة المصرية القديمة في عهد محمد علي لم يكن ينظمها قانون أو لائحة ما. أكثر من ذلك لم تلق أبدا الاهتمام والاحترام الواجبين ، لا من قبل الأهالي الذين أطلقوا عليها تعبير " المساخيط "، ولا من قبل السلطات الحاكمة التي لم تتورع عن هدم المعابد والمسلات الفرعونية القديمة، بينما كانت المومياوات تجارة رائجة داخل مصر وخارجها.

في الوقت نفسه لا نعدم وجود مصادر أخرى تؤكد وبنفس اليقين السابق اهتمام والي مصر بالحضارة والآثار المصرية القديمة سواء من خلال القول أو الفعل، بل سنجد عشرات النصوص والوقائع والأحداث التي تؤكد وتبرز هذا الاهتمام.

ما الصحيح وما الحقيقي الذي يمكن أن نعتده في هاتين الرؤيتين إذن؟ يلح علينا هذا السؤال وبشدة ، ولكي نهم بالإجابة عليه سيكون من الأوفق التعرض أولا لعناصر تلك الرؤيتين حيث سيمدنا هذا العرض ببعض التفاصيل التي ستعيننا علي الاطلاع علي الكيفية التي تم التعامل من خلالها مع آثار الحضارة المصرية القديمة.

الرؤية الأولى : الإهمال التام لآثار الحضارة المصرية القديمة :

١- إن نظرة واحدة علي الأوامر التي أصدرها محمد علي خلال فترة حكمه الممتدة (١٨٠٥-١٨٤٨م) والخاصة بالآثار المصرية يمكنها أن تؤكد تلك الرؤية ، حيث اقتصرت هذه الأوامر علي إعطاء أي أجنبي يريد الحق في التنقيب عن الآثار في المكان الذي يحلو له، إضافة إلي أنها كانت تعطيهم الحق في الاحتفاظ بما يعثرون عليه من آثار قديمة^(١) ولعل أشهر البيورلديات كان لشامبليون حيث يصرح فيه إلي "صديقه المسيو شامبليون " الفرنسي بالسياحة في أعلي الأقاليم الصعيدية إلي بربر ولكونه ضيف يلزم مساعدته من عموم المأمورين في كل ما يلزم له"^(٢)

٢- جرت العادة علي استخدام المعابد والمقابر والقصور الفرعونية القديمة كمحاجر يستفاد منها في بناء المعسكرات الخاصة بالجيش ، إضافة إلي الورش والجسور التي شهدت طفرة كبيرة في هذه الحقبة التاريخية . تلك الحقبة التي شهدت أيضا تصاعدا كبيرا علي صعيد التدمير الذي لحق بالآثار المصرية القديمة.

وقد حصر كثيرا من الرحالة الأوروبيين في تقاريرهم وكتاباتهم آثارا كثيرة قد دُمرت بالكامل، ولعل أشهر هذه التقارير هو الذي وضعه شامبليون اثناء رحلته لمصر التي وصلها في ١٨ أغسطس ١٨٢٨م ، وغادرها في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٢٩م بعد أن جابها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مما أتاح له مقارنة ما أحصاه كتاب "وصف مصر " من آثار مع الواقع الفعلي المرير الذي

اعترف بهدم حوالي ثلاثة عشرة أثرا يذكرهم شامبليون جميعا مؤكدا " أن الرحالة يشعرون بالأسف والحسرة وكذلك كل أوروبا المتحضرة التي تدين بشدة تدمير عدد كبير من الآثار العتيقة تدميرا تاما وشاملا منذ بضع سنوات دون أن يبقى منها أدنى أثر"ذكرا الباشا بأن "فقدان تلك الآثار يثير مخاوف كل طبقات المثقفين وقلقهم بشأن المصير الذي ينتظر الآثار الأخرى التي لا تزال قائمة حتى الآن"(٣).

كما يذكر لنا جاستون فيت G.wiet مذكرة قدمها قنصل فرنسا ميمو MIMAUT إلي محمد علي باشا بشأن مطالبته بوقف قيام العمال بهدم معبد دندرة من اجل بناء مصنع لنسيج القطن في قنا في ٢٤ فبراير سنة ١٨٣١ ، كما يذكر لنا تدخل بيكلر ميسكو Puckler Muskou لنفس الغرض ، ويحدثنا رغبة ميسكو في أن يجعل من مصر متحف ضخم ، ويكتب فيت معلقا " إلا أنه في إمبراطورية محمد علي ليس ثمة مكان يتسع لشيء آخر غير المعسكرات والمصانع، والمدارس التطبيقية"(٤).

ويضيف أن العديد من الأعمدة والكتل الفنية تم إختفائها من الاسكندرية لاستخدامها في بناء المعسكرات وفي الأعمال البحرية التي أدارها دى سيريزى DE CERISY ويحكي لنا دى بلفون LINANT DE BELLEFONDS إلي دى إستورمل D'ESTOUMEL انه حاول بلا جدوى الحصول من الباشا علي ثلاث فرمانات تعمل علي إيقاف الدمار الشامل للآثار الرائعة لمدينة انتينوبوليس NTINOE (الشيخ عباده) (٥) .

ويؤكد فيت أن استورمل نفسه خلال مقابلة له مع الوالي سنة ١٨٣٣م اشتكي إليه الدمار الذي يلحق بالآثار القديمة، ووعده الباشا بأنه سيعمل علي أن تتفد أوامره الخاصة بهذا الموضوع. ولعل حادثة الشروع في هدم الهرم الأكبر من اجل بناء أحد

السود في بداية عام سنة ١٨٣٦م ، تظل هي الطامة الكبرى لعصر محمد علي بأكمله. إذ طلب الباشا من لينا دي بلفون ترتيب هذا الأمر. ويكتب قنصل فرنسا ميمو خطابا مطولا لمحمد علي يحذره فيه من مغبة هذا العمل الذي ينتمي للهمجية ، مما سينال اسم وسمعة محمد علي الذي عرف في أوروبا مرتبطا بالانشاء والعموان عندما سيرتبط بتدمير أعظم أثر خلفته البشرية علي ارض مصر وهو عجيبه من عجائب الدنيا السبع "الأهرام".

ويذكره في رسالته بالمحاولات السابقة لهدم الهرم الأكبر والفشل الذي حالفهما. ويذكره أيضا بالرأي العام القوي الذي يحسب له ألف حساب في فرنسا وأوروبا، وكيف أن هذا العمل سيؤدي إلي فقدان الباشا للمؤيدين و المتعاطفين معه. إلا أن محمد علي حينما اطلع علي ميزانية المشروع واكتشف أنها فاقت كل الحدود تراجع عما قرره ، وعاد مرة أخرى إلي محاجر المقطم^(١).

هذا وقد عاين ريفو RIFAUD من قبل ما من شأنه أن يؤدي إلي ما سبق عندما قال: "لم يفهم بعد سادة الأرض المصرية ما هي الفائدة التي ترتبط بالآثار القديمة وبالأطلال التي تكشفهما . فمصر الرئيسية ، القاهرة أو الجيزة لا تتمتع بوجود الجمعيات العلمية".

إن المراجعات التي قمنا بها في أوامر محمد علي والتي تقع في جزئين ، مقارنة ، ومطابقة لما وافق عليه محمد علي في مقابلات شامبليون الخاصة به ، والتي ذكرها شامبليون بمذكراته، وغالباً ما تكون في شكل مطالب ، ومكاسب خاصة بالآثار ، وتتطلب بعض الاجراءات ، وعلي الرغم من موافقة محمد علي عليها ، إلا أننا عندما قمنا بمراجعة أوامر محمد علي في التواريخ التي ذكرها شامبليون ، نجد أن محمد علي لم يهتم باستصدار فرمانات تنظم وتنفذ ما وافق عليه من قبل. مما يؤكد علي غياب القناعة بأهمية ما كان يوافق عليه في حينه ، وكان

موافقته كانت عبارة عن مجاملات دبلوماسية ، ولم تشكل بعد أهمية ما داخل المشروع الكبير لمحمد علي في مرحلته الأولى. الذي حافظ فيه طيلة الوقت علي المتوارث رغم إيمانه بالتحديث في مجالات التقنية، إذ نجده يطلق علي أحد المسلات، والأرجح أن تكون مسلة الأقصر التي تم إهدائها لفرنسا ، يطلق عليها "أحد الأعمدة الكفرية" (٨)

الرؤية الثانية : الاهتمام الكامل لآثار الحضارة المصرية القديمة :-

تستد الرؤية الثانية علي تنفيذ ما يمكن أن يحسب علي الأوامر الصادرة عن الباشا والتي أتاحت لكل أجنبي البحث عن الآثار في مصر. إذ أن قبل محمد علي لم يكن الأجنبي في حاجة أصلا لتصريح ، وبالتالي لا نستطيع أن نحصي ما خرج من آثار مصريه مع الأجانب قبل عصر محمد علي.

وإذا كان مجموع ما خرج من آثار في عصر محمد علي كثير جدًا بإحصاء التصاريح التي أصدرها للأجانب ، إلا أن ما خرج قبله يفوق مجموعه آلاف المرات، لأن كل أجنبي كان يمكنه القيام بالحفائر والاستيلاء علي ما يعثر عليه دون ادني تدخل من السلطات التي انشغلت في التطاحن فيما بينها علي السلطة. وإذا كانت هذه السلطات لم تشغل يوما بموضوع الآثار ، فان محمد علي قد شغله هذا الموضوع ولو بشكل جزئي ، والدليل إخضاعه لتصريح من الدولة.

أكثر من ذلك فلقد تمت تحت حكم محمد علي بعض الاكتشافات عن طريق التقنيات التي صرح بها ففي سنة ١٨١٧م تمت بعض الاكتشافات في الهرم الأكبر عن طريق كافيجاليا CAVIGALIA كما تم مع نفس المهمة رفع الرمال عن أبو الهول. وفي سنة ١٨١٨م تمت اكتشافات أخرى في الهرم الثاني (خفرع ، عن طريق بلزاني BELZANI الذي عمل في خدمة سالت SALT .

ولم تنته الاكتشافات في منطقة الأهرامات إلي هذا الحد ، بل توبعت

الاكتشافات في المنطقة عن طريق الكولونيل الإنجليزي ويز WYSE، وفيما بعد عن طريق لبسيس LEPSIUS.^(٩)

ولا ننسى أن مهمة شامبليون العلمية التي تمت في سنة ١٨٢٨م - سنة ١٨٢٩م لم تتم إلا بموافقته وبمباركته وبتصاريحه التي سهلت المهمة. ولعلنا نعرف مدي تقدير واهتمام محمد علي بأبحاث واكتشافات شامبليون الأثرية، وقيامه باستقباله في عديد من المرات، بل استمرت نقاشاتهما لساعات طوال.

ولعل الأدبيات المكتوبة تحكي لنا عن مدى هذا التقدير الذي كان يكنه الباشا لمكتشف رموز اللغة الهيروغليفية. ففي أحد الأمسيات حيث كان شامبليون مدعوا علي العشاء لدي الباشا وولي عهده إبراهيم باشا، وبصحبة الطبيب الفرنسي باريزيت PARISSET، حدث أن ألتم بولي العهد أثناء العشاء أزمة قلبية، قام الطبيب باريزيت علي الفور بالتدخل و أنقذ إبراهيم باشا من موت محقق تحت وقع تأثر الباشا البالغ الذي أخذ يردد "بعث الأول (يقصد الطبيب باريزيت) ابني إلي الحياة من جديد بينما أحيا الآخر (يقصد شامبليون) مجد وعزة بلدي الذي أندثر من زمن سحيق! (١٠).

ولعلنا نذكر عبارته الشهيرة إلي شامبليون عندما قال له: "من بين كل المذاهب الأوروبية، لا أطالب لي ولشعبي إلا بمذهب فك الرموز الهيروغليفية!"^(١١)

ومن شدة اهتمام محمد علي بالآثار وبالاكتشاف العظيم لشامبليون أهدى إليه سيفاً محلي بالذهب كما يقول فيت " كشاهد علي الرضا الذي انتابه عندما شاهد الرسومات الجميلة ذات البروز القديمة التي كانت تملأ حوائبه"^(١٢). والمعروف أيضاً أن محمد علي المحب لكتب التاريخ وأحداثه و المستمع الجيد لأخبار الملوك والحكام القدامى كان قد التمس من شامبليون أن يكتب له موجزاً عن تاريخ مصر القديمة، فوعده بذلك، وبالفعل قام بتسليم محمد علي لهذا الموجز في ٢٩ نوفمبر سنة

١٨٢٩م قبل مغادرته لمصر وقد قرأه محمد على جيداً ودرس ما جاء فيه بعناية تامة كما سنكتشف فيما بعد.

كما أن باشا مصر لم يكن يقف مكتوف الأيدي أمام العبث بالآثار المصرية القديمة ، فعلي أثر هدم سالت SALT جزءا من معبد الكرنك ، أتخذ الوالي من الإجراءات والضوابط ما جعل كاييو CAILLIAUD المهتم بآثار مصر يحيي قرارات الباشا قائلا "لا نستطيع إلا التصفيق لهذه الضوابط الشديدة التي اتخذها محمد علي منذ فترة قصيرة والذي أعلن خلالهما من نفسه حامى آثار مصر ، إذ أن رعايا أمم أكثر تحضرا لم تعرف احترام الآثار بما فيه الكفاية" (١٣).

ولعل قرار إنشاء المتحف الخاص بالآثار المصرية يُعزي إلي محمد علي نفسه حينما شعر بالخزي بعدما شاهد المعاملة المهينة التي يتعامل بها تجار ومرترقة الآثار مع الآثار المصرية ، فأمر بالجريدة الرسمية في ١٥ أغسطس سنة ١٨٣٥م بأمر علي قدر خطير من الأهمية يوضح المدى الذي بلغه محمد علي في الاهتمام بالآثار والنضج الذي بلغه في التعامل معها إذ يقول الأمر : "يحدث أن بعض الأجانب يقومون بهدم الأبنية القديمة ويأخذون منها أحجار وأشياء أخرى مشغولة ، ويصدرونها إلي البلدان الأجنبية وإذا ما استمرت هذه العمليات ، فإنه مما لا شك فيه فإنه في وقت قصير جدا لن يعد لمصر شيئا من الآثار القديمة وسينتقل كل شيء للخارج.

ومن المعروف أيضا أن للأوربيين أبنية يكرسون الجهد فيها لصيانة الأشياء القديمة، والأحجار المغطاة بالرسومات والنقوش ، وأشياء أخرى مماثلة محفوظة فيها بعناية وتعرض علي سكان البلاد وأيضا علي الرحالة الذين يرغبون مشاهدتها ومعرفتها ، مثل هذه المباني تعطي للبلاد التي تملكها شهرة عظيمة.

واعتبارا من هذه الوقائع فإن الحكومة قد قررت منع تصدير هذه الأشياء

القديمة التي توجد في الأبنية القديمة بمصر إلي الخارج ، وهي لديها قيمة جد عظيمة ، هذا وسنخصص في العاصمة ذاتها مكانا سيستخدم لوضع الآثار التي عثر عليها أو سيعثر عليها عقب التنقيبات . لعرض هذه الآثار علي الرحالة الذين يزورون البلاد. وقد قررت الحكومة منع هدم الأبنية القديمة الموجودة بمصر العليا، والسهر علي صيانتها بكل العناية الممكنة^(١٤).

وفي مراجعة لأوامر محمد علي الصادرة بالفعل في تلك الفترة نجد أمره إلي مدير قنا في سنة ١٨٣٥م، يقول فيه "سبق ونهيت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة علي المباني القديمة الموجودة بندرة تجاه قنا وبيناء صورا بأطرافها والأن سمعت بإخراج أحجار من داخل البناء المذكور وجاري أعمالها جبرا ومن الضروري معرفة صحة ذلك من عدمه فإن كان صحيحا ينبغي إيضاح الأسباب المبني عليها مخالفة التنبيهات^(١٥).

ونجد مكاتبة أخري لمحمد علي في ٨ يناير سنة ١٨٣٦م موجهة لأحد موظفيه يرد بها علي تقرير كان قد رُفِعَ إليه يقول فيها : " أخذنا علما بتقريركم المؤرخ في ١٣ رمضان سنة ١٢٥١هـ (٢ يناير) ، والذي أحطنا علما بوجود ١٨٨ قطعة أثرية صغيرة وكبيرة موضوعة بمخزن للبضائع ، وتلتمسون التصريح بنقلها في مكان سننشأ لهذا الغرض في مدرسة الألسن.

فلتعلم أني ارغب بكل ما أوتيت من حيوية و طاقة أن يتم الانتهاء من هذه المباني التي نريدها بأقصى سرعة وأن تنقل إليها هذه القطع الأثرية. لذا أرجو إبلاغ كل من له علاقة بهذا الموضوع بإنهاء هذه الأعمال في اقرب فرصة ممكنة^(١٦).

وإذا غلفنا هذه الرؤية الثانية بعاطفة الحب الجياشة لمحمد علي تجاه مصر والتي تجلت في عبارات التقدير والعشق كقوله " أحب بلادي وسأبرهن أن هذا الحب جزء من ديني "^(١٧) أو قوله : " نوالنا لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم

الجسيمة. وعدم القيام بالسعي والاجتهاد في عماريتها يكون عين الكفران بالنعمة وهذا لا تقبله شيم جبلتي وتأبى نفسي أن أكون شريكاً لكم في ذلك" (١٨) كذلك قوله أوديفريد سنة ١٨٤٢ " لا أربأ أبداً في زيارة شعوب أوربا. أنا أحب مصر لدرجة أنني لا أود زيارة البلدان الأخرى. أما فيما يختص بالعلم المنتشر بين الدول الأوروبية فأني عرفت كيف أستخلصه من جميع الأجانب الذين هبطوا، وأن استغل كل ما استحسنه فيهم" (١٩) أو في قوله إلى بوكهارات : " إني أحب مصر بكل حرارة العاشق. ولو أعطيت عشرة آلاف حياة، لضحيت بهما جميعاً راضياً من أجل امتلاكها" (٢٠). هذه العاطفة تجعلنا نقول في النهاية إضافة إلى ما سبق أن محمد على هو صاحب النهضة الأثرية العظيمة في مصر، مما سيتناقض تماماً مع الرؤية الأولى، ويحيلنا إلى التناقض الذي رصدناه في البداية، وإلى تساؤلنا الأصلي : ما الصحيح والحقيقي في الرؤيتين ؟

لعل العودة إلى الفضاء الثقافي المرتبط بالسياق التاريخي لهذا العصر ربما تجعلنا نرى الصورة أشد وضوحاً، حيث سيطلعنا هذا على الشائع والمتعارف عليه من قيم ثقافية سادت بما يجعلنا - ربما - نكشف عن سر هذا التناقض الذي افترضناه، وبالتالي سيدفعنا بدوره إلى البحث عن أفاق تحليلية تفسر التناقض خارج إطار الرؤيتين السابقتين.

الفضاء الثقافي المرتبط بالسياق التاريخي الذي دارت خلاله الأحداث :

أولاً : أمام استخدام الأماكن الأثرية كمحاجر، وهو ما عايناه في عهد محمد على لابد من الاعتراف بأن العادة قد جرت منذ القدم في العصور المختلفة أن يتم الاعتماد في الإنشاءات والأبنية المختلفة على الأحجار الخاصة بالمعابد والآثار المختلفة، فلم يكن معروفاً في التعامل مع الآثار أية قوانين أو لوائح، والتاريخ مليء منذ عصر عمرو بن العاص وحتى محمد على، فلم تكن ملكاً لأحد - كما كانوا

يتصورون - بل هي ملك لمن يجدها. ولم يكن هذا مستهجنا على الإطلاق لاعتبارات دينية في الأساس اعتبرت هذه الآثار إطلال وخرائب لأمم وأقوام سابقة عاثوا في الأرض فسادا، فكان الخراب نقمة من الله، أو هي آثار الكفرة والفراعيين، أو ما أطلق عليه العامة كما رأينا تعبير " المساخيط ".! ومن هنا لم يكن عصر محمد على استثناءً، أو أنه قد استن هذه السنة البغيضة خلافاً لما كانت تقضي به الأعراف أو عادات وتقاليده العصور السابقة عليه.

ومن المعروف أن المسؤولين عن تنفيذ تلك الأعمال والإنشاءات كانوا يتوجهون مباشرة دون تصريح أو إذن خاص من الوالي، إذ كان الاتجاه إلى الآثار واتخاذها كمحاجر مسلمة أو بديهيية ظلت كذلك عبر العصور المختلفة، وحتى بعد عصر محمد على عندما طلب الخديو عباس الأول الاعتماد على أحجار الهرم الأكبر في بناء القناطر الخيرية، رغم ما أثاره هذا المطلب من ردود فعل قبل سنوات.

ثانياً : لا بد وأن نعترف بأن الوعي الأثري الذي نعرفه اليوم كان غائباً عمن عاشوا في عصر محمد على، إذ لم يكن معروفاً بنفس القدر، لا في بلداننا في الشرق العربي الإسلامي، ولا حتى في العالم الغربي الأوروبي مع الاختلاف في النسبة. إذ كان مقصوراً على النخبة من بعض المختصين والمتقنين، وهناك العديد من الوقائع التي تثبت ذلك، سنقصرها على تخلف هذا الوعي عن أوربا، حيث أن الفقرة السابقة (أولاً) تؤكد بما لا يدع لأي شك من تخلف هذا الوعي الأثري عن مصر في عهد محمد على باشا :

- إن اشتراك العديد من الأجانب في عمليات الهدم والنهب المنظم للآثار المصرية يدل على تخلف هذا الوعي، ولقد لاحظ محمد على نفسه هذا، فعندما طالبه أحد الأوربيين بحماية الآثار نجده يثور قائلاً : " أن الأوربيين أنفسهم أكثر من أبناء البلد، هم الذين يعملون على تراجع الآثار فهم الذين يبيعون ويصدرون

هذه الآثار^(٢١) ولقد لاحظنا من قبل كيف أن سالت القنصل الإنجليزي المحب للآثار قام بهدم جزء من معبد الكرنك. أكثر من ذلك نجد أن بعض من عملوا في الاكتشافات الأثرية مثل لبيس LEPsius مثلاً، نجده في فترة أخرى في موقع آخر وعلى رأس قوة مخربة للآثار من أجل الإنشاءات المدنية، تماماً كما فعل دي سيريزي DE CERISY^(٢٢). وهو الأمر الذي يؤكد على أن هؤلاء عملوا كموظفين لدى المغامرين الأجانب الذين جاءوا للبحث عن الآثار ونهبها، أو لدى الحكومة المصرية، ينفذون ما يطلب منهم طالما حصلوا على مرتباتهم وامتيازاتهم دون أن تكون أنشطتهم مرتبطة بوعي أثري أو ضمير مهني كما يمكن أن يظن.

وعلينا ألا نستغرب هذا فهناك العديد من الدلائل التي تؤيد رأينا هذا، إذ يكفي النظر إلى أوربا في هذا العصر لتتأكد بأنفسنا، ففي فرنسا التي كانت تشكل قلب الثقافة الأوروبية لم يرق مجلس نوابها بالتصويت لأول مرة على توفير اعتمادات لحفظ الآثار الفرنسية إلا في سنة ١٨٣١م. أكثر من ذلك فإن مجلس الآثار التاريخية لم ينشأ إلا في عام ١٨٣٧م^(٢٣).

وهناك من الحكايات التي تروى في أوربا الكثير لتأكيد غياب هذا الوعي الحضاري الأثري عن قطاع كبير من الأوروبيين فيحكي استرومل أنه بينما كان يتفقد معبد ديان TEMPLE DE DIANE في أحد حدائق مدينة نيم NÎMES الفرنسية في سنة ١٨١٦م، كان يتدلى جزء من الموازيك من سقف المعبد، وعندما أراد اختباره تطوع أحد الحاضرين بسرعة فكره، وقدمه له ليشاهده تحت نظرات الغرابة والاستهجان من استرومل الذي سأله عن وظيفته فهاه أن يسمع بأنه الأمين المكلف بحماية الأثر^(٢٤). كما يحكى بيكلر ميسكو بأنه طلب من الجيش الفرنسي في الجزائر إنقاذ بعض الأعمال الفنية، إضافة إلى البحث في منطقة قسنطينة عن بقايا أعمدة

رومانية إلا أنه سجل بكل الأسى بأنه لم يكن يتحدث إلا مع صم لا يسمعون^(٢٥).

ولعل نظرة إلى أثنين من الأوربيين ممن عملا في مصر لفترات طويلة في عصر محمد على، الأول وهو سالت SALT قنصل إنجلترا والآخر وهو دروفيتي DROVETTI قنصل فرنسا وقد اشتهر عنهما الحب الشديد للآثار، بل عشقهما للحضارة المصرية القديمة، وتعاوناً في البداية. وقد استمرت المنافسات والكراهية الشديد بينهما، واتهم كل منهما الآخر بنهب الآثار وسرقتها وإرسالها لبلده. إلا أنه في حقيقة الأمر لم تكن منافستهما إلا علي ما يجنيه من أرباح طائلة من هذه التجارة، ولقد وجدنا أن أحدهما وهو سالت لم يتورع عن هدم جزء من معبد الكرنك لحساب أحد الأوربيين. أكثر من ذلك نكتشف فيما بعد أن المجموعة الأثرية الخاصة بسالت القنصل الانجليزي قد اقتناها متحف اللوفر الفرنسي، بينما نكتشف أن المجموعة الأثرية الخاصة بدروفيتي القنصل الفرنسي قد باعها لمتحف تيران بإيطاليا^(٢٦).

وهكذا نتأكد من الأسباب الخفية للمنافسة، ونستبعد أن يكون الوعي الأثرى في خلفية التنافس.

هل آن لنا أن نستخلص شيئاً الآن يمكن أن يفسر التناقض الذي تحدثنا عنه من قبل؟ نعم إذ يمكننا استخلاص أن موضوع الحضارة المصرية القديمة وأثارها لم يشكل لمحمد علي أية وضعية استثنائية، غير أنه كان مثل كل الموضوعات التي حاول استثمارها إلي أقصى درجة لتحقيق أكبر قدر ممكن من العوائد، ومن هنا شعورنا بتناقض الأوامر، وتناقض القول مع الفعل، وإقرار بعض الأمور والتراجع عنها، وهو ما يفسر بأن الغرض الأساسي لم يكن الآثار في ذاتها، بقدر ما كان في حساب ما سيجلبه القرار أو الإجراء من نفع وعائد علي مشروعات الباشا الآتية.

إن العنصر المؤثر في اختيارات محمد علي يظل - في رأينا - أنه لم يفهم

من "العلم" إلا الجانب التقني التطبيقي فقط ، أي لم يفهم سوي تقنية العلم ، وهو فهم برجماتي خالص . وفاته الجانب الكامن في العلم ، ذلك الجانب المبدع الخلاق المطور للأذهان والمناهج ، وبالتالي القادر عي النمو الذاتي دوما.

ولذا كان أهم ما يحرص عليه في بعثاته التعليمية إلي أوروبا هذا الجانب التطبيقي ونظرة إلي أحد أوامره تؤكد لنا هذا البُعد الذي كان شديد الحرص فيطلب من عبدي أفندي مأمور التلامذة بباريس بعد أن علم أنهم قد أنهوا التعليمات الملكية والخارجية والعسكرية ، وهو ما نسميه اليوم بمعارفهم النظرية ، نجده يقول : "فقط يلزم لهم تطبيق العلم علي العمل الذي لا يكون إلا بسياحتهم وحيث أن ذلك لا يطابق الأصول المصرية فبصرف النظر عن ذلك وحضوره بهم إلي مصر لإلحاقهم بالمصالح لتطبيق معارفهم علي العمليات بها ومداركه ما يلزم لهم من الآلات من باريس لعدم ضياع الوقت .."(٢٧) وهو لا يترك أية مناسبة إلا وقام باستغلالها للتأكيد علي هذا المنحني الذي اعتبره أساسيا فتجده في أحد أوامره لوكيل الجهادية يطلب منه "إرسال تلامذة المهندسخانه مع أساتذتهما إلي المحل المزمع إنشاء قناطر به وتخصيص خيام لهم لرؤية العمل وتطبيق العلم عليه"(٢٨).

ولم يكن يقبل محمد علي بأي حال من الأحوال بتعيين تلامذة البعثات التي أرسلها ، وعادوا وقد أتموا بعثاتهم بنجاح ، إلا بعد اختبار قدراتهم التطبيقية في مجال العلم الذي تعلموا وبرعوا فيه ، فيطلب من ناظر البحرية "بامتحان التلامذة الذين تعلموا فن الصب بأوروبا وتجديد الآلات البخارية الحاضرين منها لمعرفة اقتدارهم علي تطبيق العلم علي العمل وأفادته بما يتضح"(٢٩).

هكذا كان التطبيق هو ما يلح عليه ، وما يعطيه الأولوية القصوى في حقل اهتماماته. ورأينا هذا ليس حكما قيميا ، أي ليس حكما علي محمد علي بالسلب أو بالإيجاب ، فهو ليس أكثر من معاينة باعتبار أن واقع وشخص محمد علي لم يكن

يسمح له بفهم هذا الفرق. إلا أن هذه المعاينة ذاتها يمكنها أن تفتح لنا بعض مغاليق الفهم. وهو ما طُبّق عمليا في استثمار محمد علي للحضارة المصرية القديمة وآثارها.

الجانب العملي التطبيقي من استثمار آثار الحضارة المصرية القديمة في عصر محمد علي :

لكي نفهم كيف تألق محمد علي ذلك التألق لا بد وأن نشير أنها كانت وسيلة ناجعة في يد محمد علي جاءت في وقتها المناسب فمنذ أن استطاع شامبليون فك رموز اللغة الهيروغليفية في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢م نجد أنه قد زاد اهتمام العالم الغربي بآثار الحضارة المصرية القديمة لحد كبير ، وظل في تزايد مستمر يوم بعد يوم ، وهو ما جعل محمد علي يعمل علي استثمار هذا الأمر في التقرب من أوروبا الغربية التي كان في حاجة إلي خدماتها من أجل تحقيق مشروعه الحضاري والاستقلالي الضخم بمصر ، سواء في إرسال بعثاته العلمية إليها ، أو في استقدام العقول والخبرات منها، وفي مرحلة لاحقة كوسيلة لتحسين صورته الشخصية التي تراجعت لحد كبير عقب حرب المورة باليونان.

واندلعت حرب المورة في فبراير سنة ١٨٢١م ، وخمدت في أول أكتوبر سنة ١٨٢٨م وشارك فيها محمد علي بناءا علي طلب الباب العالي ، حيث كان العثمانيون يعانون الهزيمة و الانكسار في كل مكان ، ولم يبق لهم سوى مودون ، ومينا كورون الذي كان يحاصره اليونانيون^(٢٠) وعند وصول القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا نجل محمد علي في أواخر أغسطس سنة ١٨٢٢م كانت نفارين أيضا قد وقعت في أيدي الثوار ، إلا أن القوات المصرية التي وصل تعدادها في هذه الحرب إلي ٤٢ ألفا ، وبلغت نفقاتها ٧٧٥ ألف جنيه^(٢١)، قد استطاعت تغيير الموقف العسكري لصالح العثمانيين ، وذلك بفضل شدة المقاتلين المصريين وحماسهم وانتصاراتهم

الساحقة علي الثوار وما ألحقه بهم من خسائر جسيمة. هذا مع شجاعة الثوار اليونانيين بما فيهم الشيوخ والأطفال والنساء مما خلف معه مذابح ودمار ترك تلثيرا سلبيا شديدا علي البلدان الأوربية خاصة إذا علمنا أن مصر قد خسرت ٣٠ ألف مقاتل ، كما خسرت أسطولها الحربي في نفارين مما يعطي صورة عن الدمار والخراب الذي خلفته الحرب وهو ما جعل صورة محمد علي باشا الوالي المصري في أوروبا حاكما محبا للدماء والقتل.

واهتزاز صورة محمد علي في الغرب بشدة عقب حرب المورة يؤيدها ما قاله شارل ديدييه من " أن حكومة باشا مصر وحتى حرب استقلال اليونان كانت تتمتع بتقدير كل الرحالة. وكانت صورة محمد علي على احسن ما يرام في الغرب، وعلى الأخص في فرنسا " ، وهذا يبين لنا شعبية محمد علي لدي الرأي العام الفرنسي خاصة عندما أهدى للملك شارل العاشر فى سنة ١٨٢٦م "زرانة" وفى سنة ١٨٣٠م يصف صورته في أعقاب حرب المورة بأنها قد تكسرت لدي الرأي العام العالمي وثارَت ضدها الصحف والمؤسسات المختلفة^(٣٢).

والمعروف أن صورة محمد علي تلك التي تشوهت لدي الأنثانجيسيا الأوربية ظلت حاضرة ، حيث تم تصوير حرب استقلال اليونان دائما وكأنها كانت بين الخير والشر ، الخير الذي مثلته الحضارة والعقل الأوربي في مقابل الشر الذي مثلته البربرية التي لا تعبأ بالثقافة المتمثلة في الأتراك ومن والاهم. وقد جسد الفنان دلاکروا في لوحتين المذابح الفظيعة التي ارتكبت في معركة مسيولونجي (إحدى معارك حرب المورة) من قبل جيش محمد علي بقيادة نجله إبراهيم باشا الذي تحول في الرأي العام الفرنسي إلي بربري متعطش للدماء. إضافة إلي ذلك إدانة شاتوبريان للاستبداد التركي ، وخاصة ما ارتكب في اليونان باعتباره عدوانا علي المدنية^(٣٣).

ولكي يحسن محمد علي من صورته تلك التي اهتزت في الغرب استخدم في

نشاطه هذا عديد من الوسائل علي محاور عدة نتخير بعضها :

١- عسكريا امتنع تماما عن الاشتراك في حرب السلطان العثماني محمود ضد روسيا ، عقب عودة الجيش المصري من اليونان في سنة ١٨٢٨م.

٢- إعلاميا استغلال الدعاية الاعلامية (البروباغندا) في الغرب عن طريق موظفيه من الغربيين ، ولعل كتاب كلوت بك "لمحه عن مصر " يدخل في هذا السياق ، وكذا كتاب بلانا "تاريخ إحياء مصر " .

٣- ثقافيا استغلال فك طلاسم حجر رشيد وكشف الأسرار لأول مرة عن الحضارة المصرية القديمة وآثارها ، وهو موضوع بحثنا هذا .

آليات استثمار الحضارة المصرية القديمة وآثارها :-

لقد تمثل هذا الموضوع في الكيفية التي يمكن من خلالها الاستفادة من هذا العنصر ، ليس فقط في تحسين صورة محمد علي في الغرب والتي تشوهت عقب حرب المورة - كما رأينا - ولكن أيضا في الاستفادة به واستغلاله علي مستوي المشروع الحضاري الاستقلالي لمحمد علي في مصر . ولكم ساهمت النبذة التاريخية التي كتبها شامبليون وسلمها لمحمد علي قبل مغادرته لمصر في التأكيد علي هذا المشروع المصري ، وكان كتبها بناء علي طلب محمد علي نفسه الذي أراد أن يعرف شيئا عن أسرار ملوك وتاريخ الدولة الفرعونية بمصر وسنتبع هذه الآليات علي محاور ثلاث :-

المحور الأول :

وهو الاستفادة المباشرة والعينية من تلك الآثار ، وإهدائها مباشرة إلي ملوك وأمراء العالم من جهة ، أو إلي سفرائهم وقناصلهم المعتمدين في مصر من جهة أخرى أو تسهيل إجراءات البحث عنها ونقلها وتصديرها خارج البلاد وإعطاء

التصاريح "والبيورلديات " التى تخول لهم ذلك، ففي أمر لمدير الوجه القبلي يخبره عن تصميمه " علي تقديم اثنين موميه برسم هدية إلي حضرة ملكة الإنكليز فمقصودي ان ذلك يكون في غاية الاعتناء فيلزم بمجرد وصوله إلي مصر تدارك الهيكلين ويكون توابيتهما بدون كسر وإرسالهما لطرفي سريعا"^(٣٤) أو كما يطلب من القائم على الخزينة " بتورية معتمد دولة النمسا الآثار القديمة التى صار استخراجها من بعض المحلات بمعرفة دولة عسكر باشا الموجودة بطرف يورفورنك وباعطاه ما ينتخبه منها وتحرير بيان ما يأخذه بكشفين تركي وافرنيكي و ابعث تلك الكشوفه إلي باغوص بك"^(٣٥) بل فتح محمد علي الباب علي مصراعيه في مرحلة أولي دون أية قيود تذكر علي تجار الآثار من الأجانب وكان أغلبهم من قناصل الدول الأوروبية كما نري من هذا الأمر إلي كاشف الجيزة وهو "يشير به أن صديقه صولت قونصل الأنكليز والخواجه دوروفتي قونصل فرنسا والخواجه بوكتي قونصل أسوج (السويد) باتحادهم مع بعض يمشوا من طرفهم القبودان فاوبليا بالتوكيل عنهم لاستخراج آثارات قديمه بجهات الأهرام وتقسيم ما يعثر عليه من الآثارات القديمة بين بعضهم والتمس صديقه قونصل الانكليز بذلك و...به عدم المخالفة في ذلك مع الملاحظة"^(٣٦).

فلم يكن في هذه المرحلة الاستيلاء علي الآثار صراحة يشكل أية مشكلة للإدارة المصرية، ولا لمحمد علي ذاته الذي بالغ في إعطاء التصاريح التي نصت صراحة علي حصول صاحب التصريح علي ما يعثر عليه كان هذا الأمر "بالتصريح إلي المدعو يجنيني مندوب قونصل شور المقيم بإسكندرية بالسياحة في أسنا ونواحيها وبحفر المحلات المأمول وجود آثار قديمة بها بمصاريف من طرفه ويأخذ ما يوجده من الآثار القديمة"^(٣٧)، بل في أحوال أخرى طالب مأمورية بمساعدة صاحب التصريح بل إمداده بالأفراد ، صحيح مقابل أجر يدفعه ، ولكنها كانت خطوه أبعد مما سبق إذ يأمر "بالتصريح إلي صديقه قونصل سردينيا المقيم

بإسكندرية نحو المحل المقال منه عن وجود حجر مكتوب بالخط القديم ويأخذه متي وجد حسب التماسه ومساعدته بالأنفار التي تلزم للحفر بمصاريف من طرفه^(٣٨). وكثيرا جدا ما شمل الأمر الواحد أكثر من جهة بمصر من وادي حلفا إلي الإسكندرية مرور بأسويط ، وفي نفس الوقت محددا بآثار بعينها كأمره "بالتصريح إلي صديقه لاني مندوب قونصل الإنكليز بنقل الآثار القديمة التي وجدها بناحية العرابه المدفونه بمديرية أسويط وتمثال السبعين الحجر الموجودين بشون وادي حلفه وكذلك كافة الآثار المودعه منه بمبني النيل وباستخراج الحجر المسمى إسفنج الظاهر نصفه إلي إسكندريه وبمساعدته بالأنفار اللازمه لذلك بمصاريف من طرفه وعدم التعرض إليه"^(٣٩).

والحق أن محمد علي لم يكن يقصر هذا الحق علي الأجانب ، بل كان مفتوحا أمام الجميع ، غير أن الأجانب هم الذين عملوا في هذا المجال ، وكان من النادر وجود أي من المصريين يعمل في البحث عن الآثار والاتجار فيها ، مع هذا عندما تقدم أحد المصريين للتصريح له بواسطة وكيل ناظر التجارة بنفس ما كان مسموح به للأجانب لم يمنع عنه محمد علي ذلك ، بل نجده "يشير بعدم التعرض إلي يوسف عبد الله أثناء بحثه عن الآثار القديمة الموجودة بكفور سقارة ومعاملته ومساعدته مثل الجاري في حق الباحثين علي مثل ذلك من الاوروبايون حسب التماس الخواجه جورجي جياره وكيل ناظر التجارة بمصر"^(٤٠).

إلا أن هذه الفوضى التي ميزت تصاريح الآثار قد خفت في مرحلة تالية خاصة بعد الالتماسات المتعددة والمتكررة من بعض علماء الآثار الذين ساءهم عمليات التخريب التي كانت جاريه علي قدم وساق ، ولعل التقرير الذي وضعه شامبليون وحصر فيه ضياع حوالي ثلاثة عشر أثراً ، كان له بعض التأثير ، ولو بكثير من التأخير حيث أنه لأول مره يشير أحد التصاريح بالمحافظة علي البناء القديم رغم أنه لم يغير شيئاً من الصياغة القديمة ، سوي تحديد مدة البحث عن الآثار

إذ يقول : " إنه بناء علي التماس جناب الكولونيل قاميل قونصل الانكليز قد صدر هذا البيورلدي بالترخيص له بتعيين مندوبين من طرفه للبحث عن انتيقات بالبنادر و القرى مدة ستة شهور فعليه يلزم عدم منع من يعينهم المومي إليه من فحت وحفر بعض المحلات دون مس البناء القديم ^(٤٠) وكان لابد من الانتظار سنتين إضافيتين ، خاصة بعد تشكيل المجلس الخديوي الذي حاول أن ينظم موضوع الآثار ويخلصها من الفوضى التي كانت تحكمها ، ولعل تعليق محمد علي على قرار المجلس يوضح تلك الترتيبات والإجراءات التي تم اتخاذها إذ يعلن لرئيس المجلس "بأنه علم نشر وإعلان الخلاصة الصادرة من المجلس بشأن عدم إخراج الأحجار القديمة وما يماثلها من الآثار وعدم هدم المباني العتيقة الكائنة بالأقاليم الصعيدية من الآن فصاعد وإحالة دقة النظر والالتفات لهذا الخصوص علي النظار والمديرين والتقريو بإعطاء ذهبية إلي مينا أفندي للمرور بها في السنة دفعة واحدة للتفتيش ولكون أن التفتيش دفعة واحدة في السنة لا يكفي ولاسيما الأهالي يخرجون الأحجار القديمة والتوابيت وما يشابهها من المباني العتيقة وجاري إرسالها من قبلهم إلي إسكندرية وبيعها علي الأفرنج وانهم لذلك يتلفون الأشياء القديمة وأن هذا الخصوص مما يجب الاعتناء به بمزيد الالتفات حتى وكان قد نبه عليه شفاها بتعيين ذات بصفة مفتش للتفتيش علي أعمال المأمورين في ذلك فعليه يلزم علي المفتش المومي إليه السعي والاجتهاد في منع إخراج تلك الآثار وعدم هدم المباني القديمة والمرور دائما لحصول المنفعة ولا بأس من مرور السواحين فقط بدون مس شيء من ذلك ^(٤١) .

هكذا يشارك محمد علي باشا في مباركة قرار المجلس ، بل ويتشدد في بعض بنوده، ويعين بنفسه المهام التي سيقوم به المفتش المزمع تعيينه للحفاظ علي الآثار ، ربما لقناعته أخيرا بخطورة الأمر ، وهو ما اصطدم مرة أخرى بالاستثناءات التي سنراها فيما بعد. إلا أن المجلس كان قد أصدر أمر آخر مشددا بعد الأمر السابق منع فيه منعاً باتاً السماح بحمل أو الاتجار أو الاستيلاء علي ما اسماء "الأنتيكات "

المصرية القديمة واجبر الجميع بما فيهم محمد علي نفسه - إلي حين - باحترام هذا الأمر.

ولعل مطالعنا لهذا الأمر تعطينا إلي أي حد احترم محمد علي أمر المجلس هذا إذ يقول "أن المدعو دولي انهي إليه بطلب صدور أمره بعدم ممانعته في نقل أحجار الانتيقة الصغيرة مع المومياء التي وجدها حال مروره بالأقاليم الصعيدية ويشير بأنه سبق صدور قرار من المجلس بشأن الانتىقات ولا يجوز الخروج عنه فيلزم عدم معارضة المذكور في نقل الموميه فقط دون الانتىقه لمنطوق القرار المحكي عنه في حق الانتىقات" (٤٣).

وأخذت الأوامر التي يصدرها الباشا في هذه المرحلة الثانية خاصة بعد قرار المجلس الخديوي تلتزم لحد كبير بهذا القرار، بل وعمل علي احترامه في صياغة تصاريحها فأمر منه إلي حبيب أفندي يوضح هذا الالتزام بالقرار إذ يقول "بأن أحد السائح الإنكليزي نهى إليه بان له خمسة صناديق داخلها موميا وغيرها محبوزه بكمرك بولاق ويرغب الافراج عنها من بولاق والكشف عليها بكمرك إسكندريه حسب الأصول والتصريح له بنقلها متي لم يكن بها انتيقة وعليه يلزم التحرير من هنا إلي محل الاقتضي بالاجراء كالتماسه" (٤٤).

وأصبحت التصاريح التي تعطي للسياحة ينص فيها أيضاً صراحة علي احترام قرار المجلس مثل تصريحه هذا "بأنه تصرح إلي كل من السير فرانكي هنكنسه أحد سواح الانكليز بفتح أحد رؤس الأهرام الصغير الكائن بجوار قرية سقارة بمديريته للنفراج وهذا للمعلوميه فيلزم مراعاة منطوق خلاصة المجلس الصادره في حق الانتىقات وأن لا يؤخذ منها شئ" (٤٥) كما تم مراعاة ذلك أيضا مع إعطاء تصاريح التنقيب عن الآثار ، بل اكثر من ذلك اصبح هناك من يرافق صاحب التصريح لمتابعة تنفيذ الأمر ، كأمره إلي محافظ دمياط "بأن حامله المسيو لاف التمس اعطاه

أمر بالتصريح له باستكشاف آثار قديمة بناحية مدينة صان بالقرب من ترعة مويس شرطاً أن لا يستخرج شيئاً منها من موضعه فيلزم بوصوله ارفاق شخص معه وإرساله للمدينة المذكورة للتجول فيها والاستكشاف علي وجه ما ذكر^(٤٦).

أكثر من ذلك يبدو أن محمد علي أخذ ينتقل بنفسه ليري مدي المحافظة علي هذه الآثار خاصة بعد الحملة الكبيرة التي قادها عديد من الأجانب بشأن معبد دندرة الذي استخدمته كمحجر لبناء أحد المصانع القريبة ،ويبدو أنه علي أثرها اضطّر محمد علي لزيارتها بنفسه ليأخذ بعض الضوابط والأجراءات ، وهو ما نفهمه من أمره هذا إلي مدير قنا - وسبق وقد عرضنا هذا الأمر من قبل - حيث يقول "سبق أن نبهت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة علي المباني الموجودة بدندرة تجاه قنا الخ".

ولعله مع هذا الأمر والأوامر الأخرى المشابهة والتي صدرت مشددة علي القرار الصارم للمجلس الخديوي كان يمكننا القول أن في المرحلة الثانية قد تخطي محمد علي تماماً عن الفوضي في مجال الآثار ، لولا الاستثناءات التي مررها، وهو ما يؤكد فرضيتنا الأولى من ان محمد علي حاول أن يستغل موضوع الآثار كما استغل كل الموارد المتاحة حتى يحقق بها أقصى ما يمكن من نتائج تصب جميعها في تحقيق مشروعة التنمية الاقتصادي الاستقلالي الكبير لمصر، إذ نجده في غمرة تشديداته تلك يصدر أمراً إلي مدير المدارس ليعطي استثناءاً لصديقه قنصل إنجلترا " تطلب صديقنا قامبل قونصل جنرال دولة الإنكليز التصريح له بإرسال الحوضين الحجر الآثار القديمة التي صارا استخراجها من تلؤل أهرام الجيزة بمصاريف من طرفه لارسالها إلي لوندرة وأنه لمناسبة صفاء المودة الحاصلة بيننا يلزم التصريح له بإرسال الحوضين المذكورين إلي لوندرة بدون معارضة "^(٤٧).

ولعلي محمد علي نفسه شعر بالتناقض بين أوامره السابقة وهذا الأمر مما

دفعه إلي إبراز السبب ليعلل سر الاستثناء الذي يمنحه ، إلا أن " صفاء المودة بينهما " لم تكن ألا القناع الذي يخفي أهمية إنجلترا علي الساحة الدولية كدوله عظمي لخدمة مشاريع محمد علي شخصياً ، ولعلنا نستضي بأمر آخر صدر من محمد علي في نفس سنة الاستثناء تلك ، فعندما تأخر الفحم عن الوابورات الإنجليزية في السويس وشكوى القنصل الإنجليزي من هذا لمحمد علي نجده يصدر أمراً علي الفور إلي كتحدا باشا بسرعة تنفيذ هذا مذكرا إياه بأن " لكون تشهيل دولة الإنكليز لاتقاس بأشغال بقية الدول بل هي أرجحها عن أشغالي كما يعلم ذلك من مطالعة الأوامر السابق صدورها إلي ديوان مصر ... فيلزم دقة المبادرة في إنجاز طلبات أشغال هذه الدولة أول بأول ويحذر من إلقاء القونصل المرسوم ليتشكى مرة أخرى^(٤٨) .

والحق أن الاستثناء السابق لا يشكل إهمالا تاما للمحافظة علي قرارات المجلس الخديوي السابقة، بل علي العكس ظلت القرارات السابقة مرعية ومحافظا عليها طالما الأمر لم يتعلق بالدواعي السياسية التي عملت علي الاستثناء السابق وما يؤكد هذا هو أمره إلي مدير بني سويف حينما تعلق الأمر بالأهالي حيث يقول فيه " بأنه سمع بوجود آثار قديمة داخل مغارة بالجبل تجاه قرب سمالوط ووجود غيرها أيضا بالجهة المذكورة بكثرة وجاري هدمها بمعرفة الأهالي بمقولة البحث علي أحجار وحيث أن التصريح بهدم ما ذكر لأجل لزوم أحجار قد أوجب اضطرابه فيقتضي بالتنبيه والتأكيد علي من يلزم بمنع المذكورين وعدم تخريب الآثار القديمة المماثلة لذلك بعد الآن^(٤٩) .

وفي السنة نفسها والسنوات التالية نجده يعطي هذه الاستثناءات كما ذكرنا للدواعي السياسية أو الدبلوماسية ففي أمر منه لمدير قبلي "يقتضي عدم التعرض إلي المدعو ليسيو بعلم والثمانية أنفار رفقاء الذين حضروا لهذا الطرف مأموريه من دولة بروسيا أثناء حفر بعض المحلات الباقي بها آثار قديمه .."^(٥٠) والغريب أن الأمر

ينفي منه تمامًا المحاذير والضوابط التي تعودناها في المرحلة الثانية، خاصة في الأوامر السابقة كعدم هدم المباني القديمة، أو منع إخراج الآثار، أو مرافقتهم من قبل أحد موظفي الدولة، فدواعي السياسة لا تقتضي تعكير الأجواء وقد جاءوا في مهمة من قبل دولة بروسيا.

وأيضًا إذا كانت الآثار المستخرجة ستقدم لشخصية هامة فلا بأس من هذا الاستثناء إذ يأمر جمر ك الإسكندرية بأن " الأربعة هياكل من الآثار القديمة التي استحصل عليهما الخواجة روشتي لتقديمها هديه إلى البابا قد صرحت له بإخراجها إجابة لطلبه فلا ينبغي التعرض له في ذلك بالكمرك " (٥١) أو إلى نفس الجمر ك ليوضح أن " قنصل جنرال دولة بروسيا استحصل على بعض أحجار وأشياء من الآثار القديمة بواسطة الموسيو ليسبوس المؤرخ لتقديمها لصاحب الحشمه ملك البروسيا وطلب مني التصريح بمرورها فأجابه لطلبه يلزم عدم التعرض في ذلك عند تسفيرها " (٥٢) وكذلك كان الأمر مع " قونصل جنرال دولة النمسا طلب مني إعطاء التصريح له بإرسال الخمسة عشر قطعة من الآثار القديمة إلى ويانه (فيينا) فأجابه لطلبه القنصل ينبغي عدم التعرض له أثناء امراره تلك الآثار من الكمرك " (٥٣) كما أتبع الإجراء لدواعي الدبلوماسية مع " الموسيو سيراوسون تتد كاتب سر حكمدارية سيلان (الذي) اشترى اثنين موميه وقطعة حجر من الآثار القديمة في أثناء سياحته بجهات الصعيد وطلب مني التصريح له بمرور ذلك من الكمرك فيلزم عدم المعارضة له فيما ذكر إجابة لالتماسه " (٥٤).

المحور الثاني :

ويتمثل هذا المحور في محاولة إيجاد المشروعية الداخلية لمحمد على - نظامًا ومشروعًا - وكأنه امتداد لملوك مصر الفرعونية، مما يجعل النهوض بمصر وتقدمها كما كانت هو عودة لتلك النهضة القديمة، ومن ثم يصبح الأخذ عن دول

أوروبا الغربية مشروعاً أيضاً من أجل الوصول لنهضة مصر المأمولة .

ومحمد على الذي عرف عنه حبه وولعه للاستماع إلى التاريخ الماضي وشخصياته المؤثرة، وتدارسه للأحداث السياسية الجسام استغل فرصة زيارة شامبليون لمصر وطلب منه - كما رأينا - كتابه مذكرة عن التاريخ المصري القديم، وبالفعل أنجز تلك المذكرة التي شملت استعراضاً للتاريخ المصري القديم منذ كان المصريون بدوا رحلاً حتى غزو مصر من قبل العرب ومروراً بالدولة الفرعونية القوية ذات البأس والتي دانت لها الشعوب الأخرى المجاورة. كما تتحدث المذكرة عن أهم المدن في مصر القديمة وعمارتها، ونظم الحكم التي سادتها، وأوضاعها السياسية والعسكرية، وثورة عسكريها واستيلائهم على السلطة فيها وتقلدهم السلطة كملوك وتأسيسهم للقوانين ومبادئ الأخلاق وأسس الفنون، وتشبيدهم للحصون والحاميات والمدن والجسور والمعابد، وتصديهم للمستعمرين الهمجيين بالجيوش القوية المدربة والمسلحة، فأعادوا النظام في شتى الأرجاء والرخاء والرفاهية لرعاياهم.

ومنهم تحتمس الثالث الذي فاق الجميع في تشييده للآثار العظيمة، إضافة إلى شقه لبحيرة قارون بمدينة الفيوم لجعلها خزاناً يقي مصر من تقلبات النيل. كما أغار على الشعوب الآسيوية التي أصبحت تشكل تهديداً لأمن مصر، وذلك صيانة وتأميناً لهذا الأمن. وكذلك فعل خلفاؤه مثل أمنحتب، وحورس، ومينفتاح، وسيزوستريس الذي قام بإخضاع سوريا وإمبراطورية بابل. وهم في نفس الوقت لم يدخروا وسعاً في بناء القصور والآثار التي تخلدهم.

وفي عصر سيزوستريس وصل نفوذ مصر إلى النوبة بأسرها والحبشة وسنار ومجموعة الأقطار الواقعة في جنوب أفريقيا وقبائل الصحراء الشرقية والغربية للنيل، وسوريا وبلاد العرب، ومملكتي بابل والموصل، وجزء كبير من الأناضول

وآسيا الصغرى وجزيرة قبرص والعديد من جزر الأرخبيل إضافة إلى ممالك فارس. كما بلغت الحضارة والفنون والعلوم في الداخل أقصى درجة التقدم والرقى. وارتقت مبادلات وتجارات مصر الخارجية في جميع المجالات. والكشوف الأثرية تبرهن على أن هذا الشعب عاش عيشة رغده مستمتعاً بكافة مظاهر الترف والبذخ. وفي عصر رمسيس ميامون وهو فاتح عظيم اهتم بسلاح البحرية. وهكذا سارت المذكرة على هذا المنوال^(٥٥).

ولعله كانت لهذه المذكرة أثراً ووقعاً كبيراً على محمد علي الذي وصفه البعض بأنه " كان يستوحى الآراء الحكيمة من قراءة التاريخ كما كان يتعرف على ما قام به القدماء من مشروعات جليلة في القطر المصري حتى يقوم بأعمال تماثلها، وقد أصدر أمراً في سنة ١٨٢٩ إلى نظارة المالية يتلخص في أنه اطلع في الكتب التاريخية على أن مؤسس التركة الاشرافيه (وهي التي تبدأ من ساحل مرقس في البحيرة) المزمع تجديدها الآن هو الاسكندر ومن معه من حكماء اليونان ثم اندثرت، وفي زمن استيلاء الأكراد على مصر تجددت بأمر السلطان الأشرف ثم اندثرت أيضاً. وأنه كلف شاعر أفندي المهندس بمباشرة فتحها وبذل المهمة في ذلك"^(٥٦)

اهتمام محمد علي بالتاريخ جعله يطلب دائماً من أصدقائه أن يمدوه بالكتب التاريخية خاصة التي تركز عن الزعماء التاريخيين العسكريين، وكلنا نعلم مدى اهتمام محمد علي بقراءة تفاصيل حياة نابليون بونابرت من خلال ما كتبه القناصل عنه (محمد علي) في لقاءاتهم به. ولعل رسالة قنصل اليونان وصديق محمد علي طوسيجيه في سنة ١٨٣٣م إلى بطريرك الروم الأرثوذكس توضح هذه الأهمية التي أولاها والى مصر بالتاريخ، إذ تقول : " يا صاحب الغبطة كلفني سعادة أفندينا أن أكتب إليكم لعلكم تجدون في مكتبة البطريركية كتاباً خاصاً بحياة الاسكندر الأكبر، ويود سموه استعارة هذا الكتاب لترجمته إلى اللغة التركية. وإذا كان الكتاب غير

موجود لديكم فمن أين يستطيع سموه أن يحصل عليه. أمن دير سينا أم من الأستانة؟^(٥٧).

هكذا علم محمد على أن مصر كانت دولة عريقة، وذات نسب وصلة بالتقدم والازدهار كما كانت دائماً من قبل في عهودها القديمة، وظل هذا الهاجس يلح عليه في شتى المناسبات ووقت اتخاذ أخطر القرارات. ففي أمر له إلى كافة الدواوين والمصالح والمآمر وهو يتحدث إلى موظفيه الكبار عن أهمية الأعوان والمساعدين في نجاح نواياه وأعماله نجده وهو يحيلهم إلى التاريخ " .. أنه من الأمور المسلمة أن أصحاب الفتوحات وواضعي القوانين في الأعصر الماضية مع ما كان لديهم من الثروة والسطوة كانت الشدائد تلجئهم إلى أعوان لبث قوانينهم وتوطيد دعائمهم..^(٥٨).

كما يحيل محمد علي مرة أخرى على التاريخ القديم ليبرز كيف كانت حالة مصر المتقدمة بأيدي أهلها، وتشكل مصر محمد علي سنة ١٨٤٣م - وقت الأمر - امتداداً جنسياً لأهل مصر السابقين. ومن هنا يكون المصريون أنفسهم، وبالتالي حكمهم، مما يجعل من مصر في عصر محمد علي امتداداً طبيعياً لمصر القديمة، يقول محمد علي: " .. أنه كما هو معلوم لذوي الوقوف بتاريخ الأعصار الماضية أن إقليم مصر أخذ في ارتقاء من العمران على دفعتين فأخذوا فاق به عن جميع جهات المسكونة وصار نموذجاً لها الأولى في زمن الأقباط والثانية في زمن اسكندر. والدليل على ذلك كتب التواريخ وسائر الآثار النفسية والأبنية المفخرة الموجودة إلى زماننا هذا التي لا نظير لها وأن دواعي تلك العمارة ما هي إلا بواسطة همم واجتهاد أناس من أبناء جنسنا وكذلك نحن إذا تعودنا على الاجتهاد ..^(٥٩).

من هنا كان وحي محمد علي على سن القوانين والأنظمة وإنشاءاته المتعددة للقصور والجسور والترسانة البحرية والجيش القوي والمدارس المختلفة " كمحيي

للدولة المصرية القديمة " ولعل تلك التسمية قد راجت كثيراً في أوروبا عن طريق موظفيه من الأوروبيين، وكان أطلقها لأول مرة بلانا، ومن بعده كلوت بك وكان يصور بهذا والي مصر وكأنه استمرار للدولة المصرية القديمة، محاولاً إحياء نهضتها الفرعونية العظيمة. بل نجد أن محمد علي نفسه يحرص ن يضع هذه الصفة على الميداليات التي صُبت في فرنسا لغرض إهدائها لكبار الشخصيات في الداخل والخارج. ولن نناقش هنا ما أشيع بأن خلق قومية مصرية في هذا الوقت كانت تسير ومصلحة القوى الأوروبية لكي تتسلخ مصر عن قوميتها العثمانية. فعلى الرغم من أن هذا كان يطابق السياسة الأوروبية " فرق تسد " في هذه الآونة، إلا أن هذا التطبيق لا يجعلنا نوجه اتهاماً إلى محمد علي بالتواطؤ مع القوى الغربية التي عرفت كيف يستغلها لحساب مشروعاته، كما فهم حدود وآفاق هذا الاستغلال.

ولا ننسى أنها نفس القوى التي وقفت لمشروعاته بالمرصاد، بل عملت دائماً على تراجعها، ولعل حوادث نفازين ووصوله لحدود الدولة العلوية تشهد على تريبص الأوروبيين به. ومع هذا قاوم كل الأصوات التي حاولت تثبيط عزائمه فيقول لبوكلر ميسكو في سنة ١٨٢٧م " كل دولة تستطيع أن تصبح كبيرة وكل جيش يستطيع أن يضمن الفوز إذا وجد كل منهما من يعرف كيف يقوده في الطريق القويم "(٦٠). وعندما ضيقوا عليه الخناق بحجة أن مصر دولة زراعية ليشثوه عن مشروعاته قال: " لا أعتقد شخصياً أن الطبيعة حتمت على بعض الأمم التفرغ للزراعة أو للصناعة دون سواها. وبالعكس فإنني أرى أن كل بلد زراعي قد يصبح بلداً صناعياً وتجارياً في آن واحد "(٦١). من هنا استطاع محمد علي أن يجعل من الأخذ عن النموذج الغربي عملاً مشروعاً في أحد البلدان الإسلامية، لأن الوصل للتقدم لن يتأتى إلا باستعارة أسبابه من الغرب.

ومن هنا بدأ في تحديث مصر على النموذج الغربي وشجع تطوير التعليم وإرسال بعثات الطلبة للخارج واستدعاء الأطباء والمهندسين والعسكريين

والزراعيين من أوروبا للمساعدة في إنجاح مشروعاته على نفس المناهج والأسس والعلوم الغربية. وهو يقول لأحد مهندسيه ممن استدعاهم من أوروبا لتأسيس الترسانة بالإسكندرية " أريد أن يكون هذا الميناء ممرًا بالسفن الحربية. أسسوا لي ترسانة تنافس أعظم الترسانات الموجودة في فرنسا وإيطاليا وإنجلترا. أن المال لن ينقصكم ولا الرجال كما أنني أخولكم السلطة المطلقة لإنجاز أعمالكم" (٦٢) وكذا كان يحرص علي استقدام المعلمين في شتي فروع العلم والمعرفة وتحفيزهم علي تعليم الطلبة لفنونهم المختلفة . وقرب إليه من عرف أنه له فضلا في العلم والمعرفة مثل الشيخ حسن العطار الذي أصبح فيما بعد شيخا للجامع الأزهر ، وكان قد آمن بمشروع محمد علي لتقدم البلاد وباركة وأثنى عليه ، وهو الذي رشح أحد أهم الشخصيات فيما بعد الشيخ رفاعه الطهطاوي كإمام للبعثة الأولى التي أرسلت لفرنسا ، وكان من همة الطهطاوي ودأبه أن تعلم وأخذ العلم علي أصوله ، وأصبح من أعمدة مشروع محمد علي في الترجمة عن الفرنسية . إذا أمن بالحاجة التقدم والازدهار لمصر ، وبالقومية والوطن المصري .

وإلي جانب إطلاعه علي الأعمال السياسية والجغرافية والعسكرية والدستورية بفرنسا ، أطلع أيضا علي علم المصريات القديم وأتصل بالمستشرقين وكان يملؤه الزهو والفخر عندما يجد الأوروبيين مهتمون بدراسة تاريخ بلاده القديم . ولكان أشد اقتناعه بأن مصر الحديثة هي الوريثة الشرعية لمصر الفرعونية القديمة، وإذا كانت مصر القديمة قوية ومزدهرة فانه لابد لمصر الحديثة أن تنهض وتعود لسابق مجدها التليد. وهكذا استطاع أن يتربي داخل مشروع محمد علي جيل من الرجال آمنوا به وبحسن إدارته وهمة . وكان أغلبهم ممن ذهبوا لبعثاته إلي فرنسا ، أو تعلموا داخل المكاتب والمدارس التي أنشأت علي قدم وساق بمصر .

هكذا استطاع محمد علي إحكام معادلته الصعبة في اكتساب المشروعات الداخلية من خلال العمق التاريخي الذي استمدته من تاريخ مصر القديم. وفي

الاستفادة لأقصى حد من هذا الأفق الحداثي الغربي.

المحور الثالث :

ويتمثل هذا المحور فيما أضفته مذكرة شامبليون علي التاريخ المصري القديم بإظهارها أن شرق مصر (سيناء والشام) يمثل بُعداً إستراتيجياً للحفاظ علي الأمن والحدود المصرية عندما ظهر أن الغزوات التي تعرضت لها مصر عبر تاريخها الطويل كانت تأتي دائماً من ناحية الشرق. هل نستطيع أن نجزم بان هذا البعد جاء نتيجة لمذكرة شامبليون التي كشفت عن أسرار ملوك وتاريخ الدولة الفرعونية بمصر ، ومن ثم لم يكن ذلك في حسابان محمد علي من قبل ؟

الحقيقة أن هذه النقطة تتطلب منا بحثاً مستفيضاً قبل أن نقرر ذلك . صحيح أن محمد علي بدأ الأعداد لغزو الشام وتجهيز وتقوية جيشه وأسطوله بعد تسلمه لهذه المذكرة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٢٩م ، وبدأت حملته علي الشام في أكتوبر ١٨٣١م أى بعد ما يقرب من سنتين فقط ووصل عدد أفراد الجيش وقتئذ إلي ٩٠ ألفاً.

وصحيح أيضاً أن المصادر التاريخية تؤكد أنه في سنة ١٨١٠م كان محمد علي يود أن تؤول سوريا إليه إلي جانب مصر ، كما قال صديقه قنصل فرنسا بمصر دورفيتي حتى ولو دفع سبعة أو ثمانية ملايين قرش كرشوة للسلطان. إلا أن هناك بعداً آخر يمكننا إضافته لإجلاء بعض الأمور ألا وهو رفض محمد علي سنة ١٨٢٩م أيضاً طلب فرنسا الملح بإشتراكه في غزو الجزائر إلي جانب الجيش الفرنسي بعد مفاوضات استمرت فترة طويلة ، بحجة أن الجرائر مسلمة ، ونقرأ أسباب الرفض فيما أفضي به إلي ميمو قنصل فرنسا في سنة ١٨٣٠م ، وهو ما يعني أن فرنسا لم تكن قد فقدت الأمل بعد في موافقة محمد علي وظلت تلح عليه في ذلك، يقول محمد علي : لقد أبلغت مرتين بلسان إبراهيم باشا الأسباب التي تحول دون القتال إلي جانب فرنسا علي الرغم من تعلقي ببلادكم ورغبتني الصادقة في

خدمتها . وسأكرر لكم الأسباب إذا أردتم ، أن أعظم وزير في السلطنة العثمانية ، ولكن إذا وافقت علي الشروط التي تعرضونها علي فسأفقد كل ثمار جهودي وشرفي في نظر شعبي والمسلمين عامه ، أنهم سيحتقرونني وينفضون من حولي . لا تتصور أن كلامي هذا مبني علي اعتبارات دينية . اني فوق هذه الاعتبارات. لا اعتبر نفسي مسلما أو مسيحيا في سياستي . ولكن بما انني استمد نفوذي من الشهرة التي أتمتع بها وحكم أمتي علي أقول لكم أنني إذا تعاهدت معكم قضيت علي نفسي^(٦٣) .

لكن إلي أي حد كان محمد علي صادقا فيما أعلنه للقنصل الفرنسي ؟ لعل ما أعلنه محمد علي كان من قبيل الدبلوماسية الهادئة في الرفض ، والمؤسسة علي حجج وبراهين صعب ردها . وذلك لأنه إذا كان هذا ما يراه محمد علي من الناحية المبدئية فكان يمكنه الرفض مباشرة دون الإطالة في أمد المفاوضات التي استمرت طويلا هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان محمد علي ذاته قد ضرب بعرض الحائط هذه الاعتبارات - ليست الدينية كما أدعي - ، ولكن - علي الأقل - الاعتبارات التي كان يستمد منها شرعيته ونفوذه وشهرته علي حد قوله ، ألم يستصدر الباب العالي في إعلان عصيان محمد علي في أوائل مايو سنة ١٨٣٢م فتاوى من عبد الوهاب يسنجي زاده شيخ الإسلام باعتبار أن محمد علي ومن اشترك معه بغاة عصاة معتدين ، وبجواز قتالهم وقهرهم ، وعد شركائه ومعاونيه كفار بنص القرآن ، أكثر من ذلك ألم يصادق العلماء ورجال الشرع علي هذه الفتوى^(٦٤) . ومع هذا لم توقف الفتوى تقدم محمد علي ولم تثته عن هدفه في حملته الشامية ووصول جيوشه حتى الأناضول واشتبأكه في معارك طاحنة مع الجيوش العثمانية حامية حمي الإسلام والمسلمين ؟!

وهكذا نميل إلي القول ، ربما تكون رغبة التوسع شرقا والاستيلاء علي الشلم وإيالتها لمحمد علي رغبة قديمة لديه يمكن أن يقف خلفها عديد من الأسباب

الشخصية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والدولية . إلا أن ما حسم هذه الرغبة - في نظرنا - وقواها بل أعطاهما مشروعية تاريخية قديمة ، لم تكن لها ربما تكون هذه المذكرة الصغيرة التي سلمها شامبليون للباشا . مع هذا تظل هذه المسألة في حاجة لمزيد من البحث والدراسة .

هكذا ترافقت الأحداث مع الكشف المذهل الذي انجزه شامبليون في سنة ١٨٢٢م بفكه لرموز حجر رشيد ، وبالتالي اماط اللثام للمرة الأولى عن اعظم حضارة حيّرت في العالم القديم والحديث معظم العلماء والمتخصصين .

وفهم محمد علي بذكائه الفطري أهمية هذا السبق العلمي الحضاري لمصر وللحضارة الإنسانية علي السواء ، ومن ثم حاول استثمار هذا الحدث الهام علي كل المستويات - كما رأينا - ومن هذه النقطة تغيرت النظرة والسلوك الذي تم التعامل به دوما مع آثار هذه الحضارة المصرية القديمة .

وقد رأينا كيف أن الأوامر المتناقضة والمتضاربة بخصوص الآثار لم تكن إلا وسيلة من الوسائل المتعددة التي لجأ إليها محمد علي لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة من هذا الموضوع في بناء مشروعه الحضاري الاستقلالي مشروع بناء الدولة الحديثة في مصر .

الهوامش

- ١- راجع مجموعة الأوامر والبيورلديات في ملاحق هذه الدراسة.
- ٢- بيورلدي تاريخه غاية صفر ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م) من الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤٨٤) تاريخ تيمور، ج١، ص٢٧٣. (والعجيب أن هذا البيورلدي لم يشتمل على المزايا الكبيرة والضخمة التي كانت تنص عليها البيورلديات قبله أو بعده، وربما يكون هذا راجع إلى توجس وكراهية القنصل الفرنسي بمصر دورفيتي لمجيء شامبليون لأسباب ليست هنا محل اهتمامنا).
- ٣- شامبليون في مصر - الرسائل والمذكرات، ترجمة عماد عدلي، ومراجعة د. طاهر عبدالحكيم، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، وانظر النص الكامل للمذكرة في ملاحق هذه الدراسة.
- ٤- GATON WIET, MOHAMMED ALI ET LES BEAUX-ARTS, SOCIÉTÉ ROYALE D'ETUDES HISTORIQUES, DAR AL-MAAREF, LE CAIRE, P.24.
- ٥- D'ESTOURMEL, JOURNAL D'UN VOYAGE À L'ORIENT, VOL. II, PARIS, 1844, P.328.
- ٦- راجع نص الخطاب في المرجع رقم (٤)، صفحات ٣٢ - ٣٤.
- ٧- RIFAUD, TABLEAU DE L'EGYPTE, DE LA NUBIE ET DES LIEUX CIRCONVOISINS, PARIS, 1830, P.114.
- ٨- أمر إلى كتحدا بك في ٤ محرم سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣١م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، ح١، ص٤٠٠.

GASTON WIET, OP. CIT , P.38-39.

-٩

١٠-شامبليون في مصر - الرسائل والمذكرات، مرجع سابق، ص٣٩٥، وأيضا :

DE BIBLIOTHEQUE EGYPTOLOGIQUE 31, P.417 ET SUIVANTES.

١١-شامبليون في مصر - الرسائل والمذكرات، مرجع سابق، ص٣٩٧، وأيضا :

DE BIBLIOTHEQUE EGYPTOLOGIQUE 31, P.419 .

GASTON WIET, OP. CIT., P22.

-١٢

وهناك رواية أخرى جاءت مصاحبة لمذكرات شامبليون، وقد نقلت عن ابن أخته بأن الذي أهدى إليه السيف هو إبراهيم باشا ولي العهد الذي قام بزيارة شامبليون في الصباح الباكر للرابيع من نوفمبر يوم الاحتفال بعيد ملك فرنسا (شامبليون في مصر، مرجع سابق، ص٣٩٨)، إلا أنه على عكس ذلك هناك رسالة من شامبليون إلى أخيه في ٢٥ ديسمبر ١٨٢٩م تؤكد على أن محمد علي قد منحه سيفاً رائعاً. (المرجع السابق، ص٤٢١).

١٣-CAILLIAUD, VOYAGE A MÉROÉ, AU FLEUVE BLANC, AU DEL À DE FAZOQL DANS LE MIDI DU ROYAUME DE SENNAAR, À SYOUAH ET DANS CINQ AUTRES OASIS, VOL.III, PARIS ,1826 , P. 300-301.

JOURANAL ASIATIQUE, 1835, VOL. II, P.474-482.

-١٤

١٥-أمر منه إلى مدير قنا في ٩ رجب سنة ١٢٥٣هـ (١٨٣٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة ج-٢، ص٣٨٨.

GASTON WIET , OP. CIT., P. 29.

-١٦

١٧- إلى كوشلية في سنة ١٨٣٩م - أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

١٨- انظر : شفيق غربال، محمد علي الكبير، ج٣، ص٦٦، وأيضا أمر محمد علي إلى كافة الدواوين والمصالح والأمير في ٤ جماد آخر سنة ١٢٥٩هـ (١٨٤٢م) بملاحق هذه الدراسة.

١٩- أهرام نوفمبر ١٩٤٩م.

٢٠- المرجع السابق.

٢١- GASTON WIET , OP. CIT., P. 23.

٢٢- IBID, P.30 .

٢٣- ANDRÉ MICHEL , HISTOIRE DE L'ART , VOL VIII, PARIS , 1929, P.38.

٢٤- D'ESTOUMEL , OP.CIT., VOL.II P.257.

٢٥- EHRHARD, LE PRINCE PUCKLER MUSKAU, VOL.II, PARIS , 1927 , P.35.

٢٦- GASTON WIET , OP. CIT., P. 26. (LE MARGE)

٢٧- أمر منه إلى عبيد أفندي مأمور التلاند بباريس في ٢٦ ذو القعدة سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، ج١، ص٣٩٥.

- ٢٨-أمر منه إلى وكيل الجهادية في ١٧ شوال سنة ١٢٤٩هـ — (١٨٣٣م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٤٧٢.
- ٢٩-أمر منه إلى ناظر البحرية في ٤ رجب سنة ١٢٥٠هـ — (١٨٣٤م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٥٩٨.
- ٣٠-أنظر القائمقام عبدالرحمن زكي، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير - الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار المعارف بمصر ١٩٥٠م، ص١٨٥، وما بعدها.
- ٣١-أنظر : عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، دار المعارف، ط٥، سنة ١٩٨٩م، ص٢١٥.
- ٣٢-شارل ديدييه، ليالي القاهرة، ١٨٦٠م، باريس، نقلًا عن بحث د. علي كورخان المنشور في هذا الكتاب وانظر أيضًا :
- PLANT (J), HISTOIRE DE LA RÉGÉNÉRATION DE L'EGYPTE, GÈNEVE, 1830, P. 183.
- ٣٣-راجع في هذا بحث د. علي كورخان المنشور في هذا الكتاب.
- ٣٤-أمر منه إلى مدير الوجه القبلي في ٤ جماد آخر ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٥٥.
- ٣٥-أمر منه إلى الخزينة دار في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٨هـ — (١٨٣٢م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٤٥١.
- ٣٦-أمر منه إلى كاشف الجيزة بتاريخ ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ — (١٨٢١م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ١، ص٤٢.

- ٣٧- أمر منه إلى مأمور نظام أسنا بتاريخ ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٤٣هـ —
(١٨٢٧م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ١، ص ٢١٤.
- ٣٨- أمر منه إلى مأمور الجيزة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م)، من
أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ١، ص ٢٩٥.
- ٣٩- أمر منه إلى الكتخدا بمصر في تاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)،
من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ١، ص ٣٤٩.
- ٤٠- أمر منه إلى مأمور الجيزة بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م)، من
أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ١، ص ٣٠٩.
- ٤١- بيورلدي منه خطابا لمديري ونظار أقسام وجه قبلي في ٢٩ شعبان سنة
١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ١،
ص ٤٦٨.
- ٤٢- أمر منه إلى رئيس المجلس في ٢١ ربيع آخر سنة ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، من
أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ٢، ص ٧.
- ٤٣- أمر منه إلى مدير نصف ثاني قبلي في ١٣ ذو القعدة سنة ١٢٥١هـ —
(١٨٣٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ٢، ص ٧٨.
- ٤٤- أمر منه إلى حبيب أفندي في ٢٥ جماد أول سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، من
أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ٢، ص ٢١٥.
- ٤٥- أمر منه إلى مدير الجيزة في ١٣ شعبان سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، من أوامر
محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ٢، ص ٢١٥.
- ٤٦- أمر منه إلى محافظ دمياط في ١٦ ربيع آخر سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، من
أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ ٢، ص ١٤٦.

- ٤٧-أمر منه إلى مدير المدارس في ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٣٨٨.
- ٤٨-أمر منه إلى كتحذا باشا في ١١ جماد أول سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٣٩٤.
- ٤٩-أمر منه إلى مدير بني سويف في ٢٣ صفر ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٤٦٢.
- ٥٠-أمر منه إلى مدير قبلي في ٢٥ شعبان سنة ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٤٧٢.
- ٥١-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٣ محرم سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٣٢.
- ٥٢-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٠ رمضان سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٣٧.
- ٥٣-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٤ شعبان سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٣٥.
- ٥٤-أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٩ شوال سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م)، من أوامر محمد علي، مخطوطة سابقة، جـ٢، ص٥٤١.
- ٥٥-راجع : شامبليون في مصر، الرسائل والمذكرات، مرجع سابق، ص٤٠٢-٤١٦.
- ٥٦-أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.
- ٥٧-المرجع السابق.
- ٥٨-راجع ملاحق هذه الدراسة.
- ٥٩-راجع ملاحق هذه الدراسة.
- ٦٠-أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.
- ٦١-إلى اوديفريد سنة ١٨٤٢م في أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.
- ٦٢-إلى سيريزي بك في أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.
- ٦٣-إلى ميمو سنة ١٨٣٠م، في أهرام نوفمبر ١٩٤٩م.
- ٦٤-في شأن هذه الفتوى راجع أهرام نوفمبر سنة ١٩٤٩م.

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

أمر محمد علي إلى كافة الدواوين والمصالح والآمير

في ٤ جماد آخر سنة ١٢٥٩هـ

إنه لترادف تقلبات الأحوال وتنوع تيار صعوباتها وشداديتها من زمن جديد بعكس وجهة آمالي وكل ما أتأمل لها بامعان النظر ولما يحصل من وخامة عواقبها بالنسبة لجسامة تلك الخطوب كنت أتجلد بعزم ونوايا خيرية لمقابلة شدائد تلك الصعوبات. ومضت على الأوقات العديدة وأنا في تحمل المشاق تاركاً للراحة وبديهي أنه لا يتأتى لشخصي بمفرده مصادمة تلك الخطوب وإذلالها بل يحتاج لأعوان ومساعدين ذو عزيمة حتى ينجح في نواياه وأعماله وأنه من الأمور المسلمة أن أصحاب الفتوحات وواضعي القوانين في الأعصر الماضيه مع ما كان لديهم من الثروة والسطوة كانت الشدائد تلجئهم إلى أعوان لبث قوانينهم وتوطيد دعائمهم حالة كونهم محفوفين بنفوذ الكلمة ومما لا ارتياب فيه أنكم لو اتحدتم كشخص واحد وبذلتهم الهمم بساعد الجد وتعودتم على ترك الراحة وأبرزتم الغيرة بالنشاط وتحمل المشاق بالتجلد لبث العدل وتشديد العمران للأعقاب والأخلاق ليكون سبباً للفوز والنجاح ونوال السعادة وأنه كما هو معلوم لذوي الوقوف بتواريخ الأعصار الماضية أن إقليم مصر أخذ في ارتقاء من العمران على دفعتين مأخذ أفاق به عن جميع جهات المسكونة وصار نموذجاً لها الأولى في زمن الأقباط والثانية في زمن إسكندر والدليل على ذلك كتب التواريخ وسائر الآثار النفسية والأبنية المفتخرة الموجودة إلى زماننا هذا التي لا نظير لها وأن دواعي تلك العمارية ما هي إلى بواسطة همم واجتهاد أناس من أبناء جنسنا وكذلك نحن إذ تعودنا على الاجتهاد فكل ما صرفنا الهمم وتحملنا ترك الراحة البتة من الوصول إلى مقاصدنا ونوال نوايانا وأنه لمعلوم للجميع

أن أراضي سائر الممالك الأجنبية أخذت أسمى درجات العمران بواسطة همم أهاليها حالة كونها غير قابلة للزراعة سوى دفعة واحدة في البيئة مع أن أراضي مصر جاري زراعتها دفعتين بل قابلة للزراعة أربع مرات في السنة ولذلك ومن لوازمات قابليتها كان ينبغي أن تكون مصر أضعافاً مضاعفة في العمران وهي صارت عارية من حلية العمارة والتقدم وتلك الحالة أدت لتكوين أنواع سهام الكدر والأسف في فؤادي وفضلاً عن ذلك وما سبق توضيحه أنه بالنسبة لموقعها الجغرافي هي إقليم ومرسى لأهالي البلاد المسكونة البالغ نفوسها ستمائة مليون تقريباً ولا يحتاج الأمر لكثرة الملاحظون والتأمل لإمكان تقدمها في العمارة في أقرب وقت من الزمن لما لها من القابلية لا سيما لاتصالها من جهة الشرق إلى الهند والصين ومن الجهة الغربية والشمالية لأوروبا التي هي اليوم منبع الغنى والثروة ونوالنا لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعي والاجتهاد في عماريتها يكون عين كفران بالنعمة وهذا لا تقبله شيم جبلتي وتأبى نفسي أن أكون شريكاً لكم في ذلك بل أنني انجبر على دوام حقكم للاجتهاد وباستعمال القسوة بغية للوصول إلى الغاية المقصودة ولو أنكم في منزلة أولادي حتى تتيقنوا بأن لا نخلص لكم دون القيام ببذل الهمم المؤثرة في عمران الوطن الذي نلناه والإصلاحات المضطرة لها أهلية وتعرفوا قدره ومزيته أيضاً فمن بعد معلومتكم جيداً ما سبق ذكره والتأمل لنتيجة مزاياه لا شك ترون أنه متى حصل القيام ببذل الهمم والغيرة اللتين هما من مزايا الدراية بالحزم والتروي لا بد من الوصول إلى المقاصد المنشودة باجتناح التراخي والتهاويل وتزييف الكلام تلقاء أوامري المشددة المعطية لأجل تلك المهمة فاحذروا من ارتكاب طوارئ التراخي والكسل بما انه ضد الإنسانية لأن العاقل لا يفتخر بعمله بل يكون افتخاره الوصول إلى نجاح الأمور الموكولة إليه ولهذا كونوا على يقين بأنني سأسعى في سبيل هذا العمران حتى وأني أفدي روحي وفامليتي في سبيلها وتحققوا أن كل ما يرى منه أدنى تراخي وإهمال سانجبر على إتلافه لأنه في علم كل من لاذ بي أنه

كان مشربي وسيرى من منذ خمسة وعشرين سنة لا تسمح نفسي بتقدير أحد بل في علم من كانوا موجودين معي وفي صحبتي من عهد أربعين سنة كنت متجنباً استعمال العنف إنما الآن تلجؤني لاستعمال القسوة وستقروني بهذه الحالة لاتخاذ طرق المعاملة بأنواع أخرى في حقكم بما أني أعذر في ذلك وكل من لم يهتم ببذل الغيرة بالجهد الجهد لتحصيل السعادة لابد من إتلافه لأنني في ذاك العهد لا كنت أومل ولا أتعشم في الوصول إلى المراكز التي وصلنا إليها اليوم وصارت آمالي الآن آخذه في ازديان ولذلك يسهل على إتلاف أحد فامليتي الحاكمة على ثلاثة مليون من النفوس في سبيل عمارية وإصلاح الوطن الذين هو أقصى مرغوبي فتخلصوا من وخامة الكسل والتراخي والا تجبروني باستعمال القسوة الرديئة بحالة احتراق قلبي وسكب دموع عيني.

(الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، ج٢، مخطوطة بدار الكتب القومية تحت رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور، ص ٤٩٧-٤٩٩).

ملحق رقم (٢)

من أوامر و بيورلدات محمد علي

أمر منه إلى كاشف الجيزة تاريخه ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ، يشير به أن صديقه صولت قونصل الإنكليز والخواجة دوروفتي قونصل فرنسا والخواجة بوكتي قونسل (أسوج) باتحادهم مع بعض يمشوا من طرفهم القبودان فاولبليا بالتوكيل عنهم لاستخراج آثارات قديمة بجهات الاهرام وتقسيم ما يعثر عليه من الآثارات القديمة بين بعضهم والتمس صديقه قونصل الإنجليز التصريح له بذلك و ... به عدم المبالغة في ذلك مع الملاحظة " (ص ٤٢، ج ١، من الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا، ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته، مخطوطة محفوظة بدار الكتب القومية تحت رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور) .

* * *

" بيورلدى تاريخه ٣ ذي الحجة ١٢٣٣هـ

منه بالتصريح إلى البرنس لونكيس أحد أفراد الإنكليز بحفر المحلات المأمول وجود آثار قديمة فيها بجهات قبلي " . المرجع السابق، ص ١٥ .

بيورلدي منه تاريخه ٢٠ ربيع آخر ١٢٣٦هـ بالتصريح إلى الخواجة لورن الفرنساوي بالسياحة ببحر النيل والبحث عن الآثارات القديمة (ص ٢٧ نفسه)

* * *

بيورلدي تاريخه ١٢ ربيع آخر سنة ١٢٣٩ بالتصريح للخواجة كتابا وروبارت وسكواسي الإنكليزي بالبحث في الأبنية القديمة المتخربة الكائنة بوادي حلفا والأقاليم الصعيدية عن الآثار القديمة ومساعدة المذكورين وعدم معارضتهما في أمر البحث " (المرجع السابق، ص ١١٣-١١٤)

* * *

" أمر منه إلى مأمورية أصوان تاريخه ٢٠ شعبان ١٢٤١هـ يشير به أنه بناء على التماس صديقه قونصل إنكلترا قد صرح إلى الأمير جون فوقس استرا ... أحد امواء الإنكليز للبحث على الآثار القديمة بجزاير ونواحي أصوان ويؤكد عليه بعدم التعرض له وحمايته " (المرجع السابق، ص ١٩٠).

* * *

" أمر منه إلى مأمور نظام اسنا تاريخه ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٤٣هـ بالتصريح إلى المدعو يجنيني مندوب قونصل شور المقيم بالإسكندرية بالسياحة في إسنا ونواحيها وبحفر المحلات المأمول وجود آثار قديمة بها بمصاريف من طرفه ويأخذ ما يوجده من الآثار القديمة " (المرجع السابق، ص ٢١٤).

* * *

" بيورلدي من تاريخه ١٨ رجب سنة ١٢٤٣هـ بالتصريح إلى الموسيو جمص ويستر الإنجليزي بالسياحة بأعلى الأقاليم الصعيدية وبحفر المحلات والبحث فيها عن الآثار القديمة وبمساعده وعدم ممانعته في ذلك " (المرجع السابق، ص ٢٣٥).

" أمر منه إلى مأمور الجيزة تاريخه ١٣ رجب سنة ١٢٤٤هـ بالتصريح إلى صديقه سردينيا بإسكندرية بحفر المحل المقال منه عن وجود حجر مكتوب بالخط القديم ويأخذه متى وجد حسب التماسه ومساعدته بالأنفار التي تلزم للحفر بمصاريف منه " (المرجع السابق ص ٢٩٥).

* * *

" أمر منه إلى مأمور الجيزة تاريخه ١٣ شوال سنة ١٢٤٤هـ يشير بعدم التعرض إلى يوسف عبدالله أثناء بحثه عن الآثار القديمة الموجودة بكفور سقارة ومعاملة ومساعدته مثل الجاري في حق الباحثين على مثل ذلك من الأورباويون حسب التماس

الخواجة جورجى جباره وكيل ناظر التجارة بمصر " (السابق، ص ٣٠٩).

* * *

" بيورلدي تاريخه ٦ رمضان ١٢٤٥هـ بالتصريح إلى المستر هي من أمراء الإنجليز ومعه نفرين رسامين وأتباعه بالسياحة لحد سنار وبرسم المباني العتيقة والحفر فيها عند اللزوم وبمساعده في كل أموره (السابق، ص ٣٤٨).

* * *

" أمر منه إلى الكتخذا بمصر في تاريخه ١٩ رمضان ١٢٤٥هـ — بالتصريح إلى صديقه لاني مندوب قونصل الإنكليز بنقل الآثار القديمة التي وجدها بناحية العرابية المدفونة بمديرية أسيوط وتمثال السبعين الحجر الموجودين بشون وادي حلفة وكذلك كافة الآثار المودعة منه بمبنى النيل وباستخراج الحجر المسمى اسفنج الظاهر نصفه إلى إسكندرية وبمساعده بالأنفار اللازمة لذلك بمصاريف من طرفه وعدم التعرض إليه " (السابق، ص ٣٤٩) .

* * *

" بيورلدي منه في تاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥هـ بالتصريح إلى قونصل دولة الإنكليز المدعو باركر بفتح بعض المحلات القديمة واستخراج ما يوجد بها من الآثار لحد الشلالات فيمده لغاية أغسطس وبعدم التعرض إليه لحد التاريخ المرقوم " (السابق، ص ٣٤٩).

* * *

" بيورلدي في ٢٤ رجب سنة ١٢٤٦هـ بالتصريح إلى صديقه قونصل الإنكليز باستخراج الأحجار القديمة من ناحية ميت رهينة قسم ثاني جيزة وبعدم ممانعته هو ومن يعين من قبله لحفر ذلك من عموم المأمورين والحكام " (السابق، ص ٣٨٥).

* * *

"أمر منه إلى الخزينه دار فى ٢٨ ذى الحجة ١٢٤٨ هـ بتورية معتمد دولة النمسا

الآثار القديمة التي صار استخراجها من بعض المحلات بمعرفة دولة عسكر باشا الموجودة بطرف يورفورنك وباعطاه ما ينتخبه منها وتحرير بيان ما يأخذه بكشفيين تركي وإفرنكي وإبعث تلك الكشوفه إلى باغوص بك " (السابق، ص ٤٥١).

* * *

" بيورلدي منه خطاباً لمديري ونظار أقسام وجه قبلي في ٢٩ شعبان سنة ١٢٤٩هـ أنه بناء على التماس جناب الكولونيل قاميل قونصل الإنكليز قد صدر هذا البيورلدي بالترخيص له بتعيين مندوبين من طرفه للبحث عن أنتيقات بالبندار والقرى مدة ستة شهور، فعليه يلزم عدم من من يعينهم المومى إليهم من فحت وحفر بعض المحلات دون مس البناء القديم " (أوامر محمد، ج ١، ص ٤٦٨).

* * *

" أمر منه إلى رئيس المجلس في ٢١ ربيع آخر سنة ١٢٥١ بأنه علم نشر وإعلان الخلاصة الصادرة من المجلس بشأن عدم إخراج الأحجار القديمة وما يماثلها من الآثار وعدم هدم المباني العتيقة الكائنة بالأقاليم الصعيدية من الآن فصاعد وإحالة دفعة النظر والالتفات لهذا الخصوص على النظار والمديريون والتقرير بإعطاء ذهبية إلى مينا أفندي للمرور بها في السنة دفعة واحدة للتفتيش ولكون أن التفتيش دفعه واحدة في السنة لا يكفي ولاسيما بعض الأهالي يخرجون الأحجار القديمة والتوابيت وما يشابهها من المباني العتيقة وجاري ارسالها من قبلهم إلى إسكندرية وبيعها على الإفرنج وأنهم لذلك يتلفون الأشياء القديمة وأن هذا الخصوص مما يجب الاعتناء به بمزيد من الالتفات حتى وكان قد نبه عليه شفاهياً بتعيين ذات بصفة مفتش للتفتيش على أعمال المأمورين في ذلك فعليه يلزم على المفتش المومى إليه السعي والاجتهاد في منه إخراج تلك الآثار وعدم هدم المباني القديمة والمرور دائماً لحصول المنفعة ولا بأس من مرور السواحين فقط بدون مس شئ من ذلك (أوامر محمد علي، ج ٢،

ص ٧).

" أمر منه إلى مدير نصف ثاني قبلي في ١٣ ذو القعدة سنة ١٢٥١هـ بأن المدعو دولي أنهى إليه بطلب صدور أمره بعدم ممانعته في نقل أحجار الانتيقة الصغيرة مع المومية التي وجدها حال مروره بالأقاليم الصعيدية ويشير بأنه سبق صدور قرار من المجلس بشأن الانتيقات ولا يجوز الخروج عنه فيلزم عدم معارضة المذكور في نقل المومية فقط دون الانتيقة كمنطوق القرار المحكى عنه في حق الانتيقات (أوامر، جـ ٢، ص ٧٨) .

* * *

" أمر منه إلى محرم أغا مدير نصف ثاني قبلي في ٩ ربيع أول سنة ١٢٥٢هـ أن قونصل جنرال دولة النمسا تطلب بعريضته الترخيص إلى المدعو شمغر الحكيم السائح النمساوي الموجود الآن بقنا بمشترى أربعة هياكل معبرة بالموميا وإرسالها إلى بلاد الإفرنج فيلزم بعد العلم بما توضح إعطاء الحكيم المرسوم تصريحا بذلك لعدم تعرض أحد إليه (أوامر محمد علي، جـ ٢، ص ١٢٤) .

* * *

" أمر منه إلى محافظ دمياط في ١٦ ربيع آخر سنة ١٢٥٢هـ بأن حامله المسيو لاف التمس اعطاه أمر بالتصريح له باستكشاف آثار قديمة بناحية مدينة صان بالقرب من ترعة مويس شرطاً أن يستخرج شيئاً منها من موضعه فيلزم بوصوله أرفاق شخص معه وإرساله للمدينة المذكور للتجول فيها والاستكشاف على وجه ما ذكر (أوامر...، رجـ ٢، ص ١٤٦) .

* * *

" أمر منه إلى حبيب أفندي في ٢٥ جماد أول سنة ١٢٥٢هـ بأن أحد السائح

الإنكليزي نهى إليه بأن له خمسة صناديق داخلها موميا وغيرها محجوزة بكمرك بولاق ويرغب الإفراج عنها من بولاق والكشف عليها بكمرك إسكندرية حسب الأصول والتصريح له بنقلها حتى لم يكن بها انتيقه وعليه يلزم التحرير من هنا إلى محل لاقتضى بالإجراء كالتماسه (أوامر ...، جـ ٢، ص ١٦٦).

* * *

" أمر منه إلى مدير الجيزة في ١٣ شعبان سنة ١٢٥٢هـ بأنه تصرح إلى كل من السيرفرانكي هنكنسه أحد سواح الإنكليز بفتح أحد رؤس الأهرام الصغير الكائن بجوار قرية سقارة بمديريته للتفرج وهذا للمعلومية فيلزم مراعاة منطوق خلاصة المجلس الصادره في الانتيقات وأن لا يؤخذ منها شيء (أوامر ...، جـ ٢، ص ٢١٥).

* * *

" أمر منه إلى مدير قنا في ٩ رجب سنة ١٢٥٣هـ سبق أن نبهت عليك لما كنت بقنا في العام الماضي بالمحافظة على المباني القديمة الموجودة بدندرة تجاه قنا وبنناء صوراً بأطرافها والآن سمعت بإخراج أحجار من داخل البناء المذكور وجاري أعمالها جبر، ومن الضروري معرفة صحة ذلك من عدمه فإن كان صحيحاً ينبغي إيضاح الأسباب المبني عليها مخالفة التنبيهات (جـ ٢، ص ٣٥٢).

* * *

" أمر منه إلى مدير المدارس في ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٤٥هـ تطلب صديقنا قاميل قونصل جنرال دولة الإنكليز التصريح له بإرسال الحوضين الحجر الآثار القديمة التي صاروا استخراجها من تلؤل أهرام الجيزة بمصاريف من طرفه لإرسالها إلى لوندرة وأنه لمناسبة صفاء الموده الحاصله بيننا يلزم التصريح بإرسال الحوضين المذكورين

بدون معارضة (أوامر، جـ ٢، ص ٣٨٨).

* * *

" أمر منه إلى مدير بني سويف في ٢٣ صفر سنة ١٢٥٨هـ بأنه سمع بوجود آثار قديمة داخل مغارة بالجبل تجاه قرب سمالوط ووجود غيرها أيضاً بالجهة المذكورة بكثرة وجاري هدمها بمعرفة الأهالي بمقولة البحث على أحجار وحيث أن التصريح بهدم ما ذكر لأجل لزوم أحجار قد أوجب اضطرابه فيقتضي بالتنبيه والتأكيد على من يلزم يمنع المذكورين وعدم تخريب الآثار القديمة المماثلة لذلك بعد الآن (أوامر...، جـ ٢، ص ٤٦٣).

* * *

" أمر منه إلى مدير قبلي في ٢٥ شعبان يقتضي عدم التعرض إلى المدعو ليسيو بعلم والثمانية أنفار رفقاء الذين حضروا لهذا الطرف مأموريه من دولة بروسيا أثناء حفر بعض المحلات الباقي بها آثار قديمة .. (جـ ٢، ص ٤٧٣).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٣ محرم سنة ١٢٦١هـ الأربعة هياكل من الآثار القديمة التي استحصل عليها الخواجة روستي لتقديمها هدية إلى البابا قد صرحت له بإخراجها لإجابة لطلبه فلا ينبغي التعرض له في ذلك بالكمرك. (جـ ٢، ص ٥٣٢).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٤ شعبان سنة ١٢٦١هـ قونصل جنرال دولة النمسا طلب مني إعطاء التصريح له بإرسال الخمسة عشر قطعة من الآثار القديمة إلى ويانه فأجابه لطلبه القنصل ينبغي عدم التعرض له أثناء إمراره تلك الآثار من

الكمرك (أوامر .. جـ ٢، ص ٥٣٥).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ١٠ رمضان سنة ١٢٦١هـ فنصل جنرال دولة بروسيا استحصل على بعض أحجار وأشياء من الآثار القديمة بواسطة الموسيو ليسبوس المؤرخ لتقديمها لصاحب الحشمة ملك البروسيا وطلب مني التصريح له بمرورها فإجابة لطلبه يلزم عدم التعرض في ذلك عند تسفيرها (أوامر ... جـ ٢، ص ٥٣٧).

* * *

" أمر منه إلى كمرك إسكندرية في ٢٩ شوال سنة ١٢٦١هـ الموسيو سيراوسون تنتد كاتب سر حكمدارية سلان قد اشترى اثنين موميه وقطعة حجر من الآثار القديمة في أثناء سياحته بجهات الصعيد وطلب مني التصريح له بمرور ذلك من الكمرك فيلزم عدم المعارضة له فيما ذكر إجابة لالتماسه.

* * *

" أمر منه إلى مدير الوجه القبلي في ٤ جماد آخر سنة ١٢٦٢هـ، قد صممت على تقديم اثنين موميه برسم هديه إلى حضرة ملكة الإنكليز فمقصدي ان يكون في غاية الاعتناء فيلزم بمجرد وصوله إلى مصر تدارك الهيكليين ويكون توابيتهما بدون كسور وإرسالهما لطرفي سريعاً. (أوامر ... جـ ٢، ص ٥٥٥).

ملحق رقم (٣)

المذكرة التي سلمها شامبليون إلى محمد علي باشا في ٢٩ نوفمبر ١٨٢٩م

مذكرة سلمت للوالي حول حفظ

وصيانة الآثار المصرية القديمة

من بين الأوروبيين الذين يزورون مصر كل عام يوجد عدد غفير منهم لا يأتون سعيًا وراء أي مصلحة تجارية، وإنما لمجرد الرغبة في التعرف بأنفسهم على آثار الحضارة المصرية القديمة المتناثرة على ضفتي النيل، والتي يستطيع المرء حاليًا تأملها ودراستها في أمان وسلام، بفضل الإجراءات الحكيمة التي اتخذتها حكومة جلالة الملك.

كمال أن فترة الإقامة الطويلة إلى حد ما التي يضطر الرحالة لقضائها في مختلف أقاليم مصر والنوبة تعود بالنفع على العلم الذي يثرونه بملاحظاتهم، وكذلك على مصر نفسها نظرًا لما ينفقونه من أموال لتنفيذ أعمالهم، أو لإشباع فضولهم، أو لاقتناء مختلف منتجات الفن القديم.

لذلك يصبح من الأهمية بمكان أن تعني حكومة سمو الملك بحفظ وصيانة الأبنية والآثار القديمة التي تمثل الهدف الرئيسي من وراء قدوم أفواج الأوروبيين الذين ينتمون إلى أرفع وأعنى الطبقات الاجتماعية.

بيد أن الرحالة يشعرون بالأسف والحسرة، وكذلك كل أوروبا المتحضرة التي تدين بشدة تدمير عدد كبير من الآثار العتيقة تدميرًا تامًا وشاملاً منذ بضعة سنوات دون أن يبقى أدنى أثر. ومن المعلوم جيدًا أن تلك العمليات التخريبية الهمجية تتنافى مع نوايا سمو الملك وأرائه المستنيرة التي لا تخفى على أحد. كما تم ذلك على أيدي أفراد لا يستطيعون تقدير مغبة الأضرار التي يلحقونها بالبلد عن جهالة. إلا أن ذلك لا

يغير من فداحة ما يجرى، كما أن فقدان تلك الآثار يثير مخاوف كل طبقات المثقفين وقلقهم بشأن المصير الذي ينتظر الآثار الأخرى التي لا تزال قائمة حتى الآن.

وفيما يلي قائمة الآثار التي تم تدميرها مؤخرًا :

- ١- كل آثار " الشيخ عبادة " التي لم يبق منتصبًا منها سوى بعض الأعمدة الجرانيتية.
- ٢- معبد " الأشمونين " الذي يعد من أجمل الآثار المصرية.
- ٣- معبد " قاو الكبير " الذي أُنْتُ عليه مياه النيل والأبدي الهمجية.
- ٤- معبد يقع إلى شمال مدينة " إيسنا " .
- ٥- معبد يقع على الضفة اليمنى للنهر في مواجهة " إيسنا " .
- ٦- ثلاثة معابد في " الكاب " .
- ٧- معبدان يقعان في جزيرة أسوان في مواجهة مدينة أسوان .

وهكذا يبلغ مجموع ما تم تدميره من آثار عتيقة نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر أثرًا، من بينها ثلاثة على وجه الخصوص كانت في غاية الأهمية بالنسبة للرحالة والعلماء.

لذلك فما أمس الحاجة إلى أن يدرك هؤلاء الأفراد أهمية إجراءات حفظ وصيانة الآثار التي سنها سمو الملك إدراكًا تَمَامًا، ويضعونها موضع التنفيذ، ويطبقونها بحذافيرها. فأوروبا بأسرها ستدين بالعرفان لسمو الملك لما يتفضل باتخاذها من تدابير فعالة تهدف إلى صيانة المعابد والقصور والمقابر وكافة الآثار الأخرى التي لا تزال تشهد بعظمة وقوة مصر القديمة، والتي تعد في نفس الوقت أروع ما يزين مصر الحديثة والمعاصرة.

ولتحقيق ذلك الهدف المرجو، يمكن لجلالة الملك أن يأمر بما يلي :

- (١) عدم إقتلاع - بأي حال من الأحوال - أية أحجار أو قوالب طوب منقوشة أو غير منقوشة من الأبنية والآثار القديمة التي لا تزال قائمة في المواقع التالية

سواء في مصر أو النوبة :

أولاً : في مصر :

- " صان " الواقعة على قناة " المعز " في مصر السفلى.
- " بهبيت " بالقرب من " سمنود " في مصر السفلى.
- " صان الحجر " في مصر السفلى.
- " قصر قارون " الذي يقع في إقليم الفيوم.
- " الشيخ عبادة " لما تبقى فيها من آثار قديمة.
- " العرابة المدفونة " الواقعة أعلى مدينة " جرجا ".
- " قفط "
- " قوس "
- " القرنة " وضواحيها.
- " مدينة هابو " وضواحيها.
- " الأقصر "
- " الكرنك " وضواحيها.
- " المدامود "
- " أرمنت "
- " الطود " الواقعة على الضفة اليمنى للنيل في مواجهة " أرمنت ".
- " إسنا ".
- " إدفو ".
- " كوم أمبو ".
- " أسوان "
- " جزيرة أسوان ".

ثانيًا : النوبة فيما وراء الشلال الأول :

جزيرة " البردة " .

جزيرة " بغية " .

جزيرة " سهيل " .

" دابود " .

" دندور " .

" بيت الوالي " بالقرب من " كلابشة " .

" كلابشة " .

" جرف حسين " .

" الدكا " .

" المحرقة " .

" وادي السبوع " .

" عمدا " .

" الدر " .

" إبريم " .

" أبو سمبل " .

" جبل عدة " .

" المسخيط " .

" وادي حلفا " بعض الأنقاض الواقعة على الضفة اليسرى للنيل .

ثالثاً : ما وراء الشلال الثاني :

(١) "سمنة" و"صولب" و"برقل" و"أسور" و"ونجا" وغيرها من المواقع التى تحتوى

على آثار عتيقة حتى حدود سنار حيث لا يوجد شئ.

(٢) إن الآثار العتيقة المنحوتة فى الجبال تضارع من حيث أهمية المحافظة عليها

الآثار المشيدة من الأحجار التى تم اقتلاعها من نفس تلك الجبال . لذلك فإن الحاجة ماسة إلى الأمر بعدم احدث أية اضرار أو تلفيات داخل تلك المقابر التى يقوم الفلاحون بتدمير نقوشها إما لإعادة استخدامها فى بناء أماكن تأويهم هم وحيواناتهم، وإما لبيع أجزاء صغيرة من نقوشها إلى الرحالة ، حتى وإن اقتضى ذلك تشويه حجرات بأكملها . أما عن المواقع الرئيسية التى تجدر حمايتها على وجه الخصوص، فتمثل فى المغارات الجبلية الواقعة على مقربة من :-

- " منف " .

- " بني حسن " ووضواحيها .

- " تونا الجبل " .

- " التل " .

- " سمون " بالقرب من منفوط .

- " العرابة المدفونة " .

- " القرنة " وضواحيها .

- " وادي الملوك " بالقرب من " القرنة " .

- " الكاب " .

- جبل " السلسة .

ففي مثل هذا النوع من الآثار تقع يوميًا عمليات التخريب والتدمير التي يقتربها الفلاحون إما لحسابهم الخاص، وإما لصالح تجار العاديات على وجه الخصوص الذين يستخدمونهم. كما أنني أعلم علم اليقين بأن هؤلاء المضاربين الأوروبيين قد دمروا أبنية أملاً في اكتشاف بعض القطع الأثرية الفريدة في أساساتها. بيد أن المغارات المنحوتة والمنقوشة التي تكتشف يوميًا في " منف " والعرابة المدفونة " والقرنة " سرعان ما تتهدم قريبًا بمجرد فتحها من جراء جهل وطمع وشراسة المنقبين عن الآثار والأشخاص الذين يستخدمونهم.

لقد آن الأوان لوضع حد لتلك العمليات التخريبية البربرية التي تحرم العلم في كل لحظة من آثار غاية في الأهمية، وتصيب الرحالة بالحسرة وخيبة الأمل لاندثار النقوش الفريدة التي تكبدوا مشاق كثيرة في سبيل القدوم لرؤيتها .

ومجمل القول فإن مصلحة العلم لا تقتضي بالطبع إيقاف الحفائر التي يكتسب من خلالها يومياً المزيد من التأكيدات والمعارف غير المنتظرة، وإنما تقتضي المصلحة إخضاع تلك الحفائر للوائح وقوانين تضمن الصيانة الكاملة لما يتم اكتشافه من مقابر في الحاضر والمستقبل، وحمايتها من كافة التعديات، سواء كان مصدرها الجهل أو الطمع أو الجشع الأعمى.

الإسكندرية في نوفمبر ١٨٢٩م.